الفصل الثالث

مع أنبياء اللّه في دعوتهم

- مع نبي الله نوح عليه السلام في دعوته.
- مع نبي الله هود عليه السلام في دعوته.
- مع نبي الله صالح عليه السلام في دعوته.
- مع نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعوته.
- مع نبي الله موسى عليه السلام في دعوته.

obeikandl.com

obeikandl.com

مع نبي الله نوح عليه السلام في دعوته

ولنبدأ الخُطى مع نُوحٍ عليه السلام..

وقد أرسل الله تعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه داعياً إليه، فبَيَّن - في ثقةٍ وإجمالٍ - ما جاءهم به، وذَكَرَ النتائجَ، وحذَّر من العواقب.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (١)

(١) نوح: ١- ٢٠.

ويمكننا – ونحن نتدبَّر هذه الآيات – أن نُدركَ تلك الملامح في دعوة نوح عليه السلام :

١- وضوحَ المنهج واستقامته:

إنَّ منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله واستدلالهم عليه يَسيرٌ في فَهْمه، عميقٌ في دَلالته، فَهُمْ لا يُخاطِبونَ الناسَ بِمُبْهَمٍ يحتاجُ إلى تفسيرٍ، أو غامِضٍ يَخْفَى على كثيرٍ، أو بعيدٍ يَصعُبُ الوصولُ إليه والوقوفُ عنده، بل يخاطبونهم بما هو قريبٌ من نفوسِهم، ذو تأثيرٍ في حياتهم، يلتَقُونَ عليه مع اختلاف درجاتهم وتباعُدِ زمانهم ومكانهم.

وقد رأيْنَا ما استدلَ به نوحٌ عليه السلام وهو يُنكِرُ على قومه ما هُمْ فيه من كُفْرٍ، وما هُمْ عليه من شِرْكٍ.

رأيناه – وهو يدعوهم إلى الإيمان – يستدلُ لهم بما يُوجِبُهُ من آياتٍ في أنفسهم وفي الآفاق ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [1]

فأيُّ أمرٍ من هذه الأمور يَصْعُبُ فَهْمُه، أو تَبْعُدُ دَلالتُهُ ؟!

إنها أمورٌ تتّصِلُ بالإنسانِ المخاطَبِ بالدَّعْوَة اتِّصالاً وثيقاً، ولا تنْفَكُ عنه في ليلٍ ونهارٍ، أو حِلٍّ وترحَالٍ، أو صَحْوٍ ونومٍ، أو حياةٍ وموت.

أدلةٌ قائمةٌ أمام أعْيُنِ الناسِ جميعاً، فمَنْ ذا الذي لم يَمُرْ بأطوارِ الخَلْقِ، من: تُرابٍ – أولاً – ثم من نُطفةٍ، إلى عَلَقَةٍ، إلى مُضْغَةٍ، إلى عظامٍ، ولَحْمٍ، إلى خَلْقٍ آخر ؟!

---

(١) نوح : ١٣- ٢٠.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

مَنْ ذَا الذي لم يَمُر بذلك كُلِّه، وهو مُتكرِّرٌ في الخَلْق؛ لتكونَ التبصرةُ والذِّكرى موصولةً بحياة الخَلْق لا تَنْفَكُ عنهم، ولا تَبْعُدُ عن واقعهم ؟!

مَن ذَا الذي لا تُظِلُّهُ سماءٌ ؟ ولا تحملُهُ أرضٌ ؟!

ومَن ذَا الذي لا ينتفعُ بشمسٍ أو قمرٍ ؟!

من ذَا الذي لا يعرفُ صِلَتَه بالأرض وهو يخرجُ منها ويُعادُ إليها ؟!

وفي ذلك ما فيه من دَلالةٍ علـــى قـــول الله: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

مَن ذَا الذي لا يتقلَّبُ على بِساطِها ؟! ويمشي في مناكِبِها ؟! ويأكلُ مـــن رِزْقِ ربِّه فيها ؟!

آياتٌ يُخاطَبُ بها الإنسانُ فلا يرى عُسْراً في فهمها، أو بُعْداً في دَلالتها.

إنها آياتٌ يأخذُ منها متاعَهُ، ويجدُ فيها معاشَهُ، ويُبصِرُ فيها حياتَهُ ومماتَهُ.

آياتٌ تتَّصِلُ بأحوالِهِ كُلِّها ولا تنْفَكُ عنهُ؛ لتكون التبصرةُ دائمةً معه، فإذا أخذَ منها ما تأخُذُهُ الأنعامُ من متاع، وغَفَل عمَّا فيها من تبصرةٍ وذِكْرى، فالشأنُ شـــأنُه،

(١) المؤمنون : ١٢- ١٤.

(٢) نوح : ١٨.

وما رَضِيَهُ لنفسه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

وكفاه أن تكونَ آياتُ الله - في نفسه ومِنْ حوله - متَّسقةً مع حاجته وتبصرته، ومتاعه وتذكرته، وهو يُدْعَى إلى عبادة ربِّه، ويُحَذَّرُ من كُفْرانِ نِعَمِه وجُحُودِ فضله.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

آياتٌ يُخاطَبُ بها الإنسانُ، وفيها منفعتُه وحاجتُه، وفيها تبصرتُه وتذكرتُه؛ لتكون عوناً له - في كُلِّ وقت - على المعرفة والهداية إلى الحق.

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ

(١) محمد : من الآية ١٢.
(٢) الجاثية : ١- ٦.

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

ومَن أبَى التبصرةَ والذِّكرى، وأخذَ من آيات الله ما تأخذُهُ الأنعامُ من متاعٍ، فقد رَضِيَ لنفسه أن يكونَ كالأنعام، بل أضَل ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٢)

٢- أثر المنهج في حياة الناس:

إن هذه الكلمات الثلاث: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ تبيِّن ما أُرسِلَ من أجله نوحٌ عليه السلام، بل ما أُرْسِلَ من أجله رُسُل الله جميعاً.

وهي كلمات جامعةٌ لخصال الخير كلِّها، ولها تأثيرٌ بالغٌ في سلوكِ الفرد وروابط المجتمع، ولها نتائجُها في دُنيا الناس وآخرهم؛ فإن عبادةَ الله وتقواه إعلاءٌ لقيمة الإنسان، وطهارةٌ له من الذُّلِ والنِّفاقِ والكِبْرِ، واتِّباع الأهواء والشهوات.

وإنسانُ الأمنِ والسَّلامِ هو ذاك الذي يعبدُ ربَّهُ، فَيَكُفُّ عن الناس شرَّهُ، ويُقَدِّمُ خيرَهُ.. ومَن لم يَفِ لله - الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقه ثم هدى - لن يكونَ وفيًّا للناس، ومَن لم يكن له من تقوى الله وازعٌ يَكُفُّهُ عن الدنايا - في السِّر والعَلَن - لن تُرْدعهُ وسائلُ البشر مهما عظُمَتْ؛ فإن الجريمة المُبَيَّتَةَ في نفس صاحبها تعجزُ قوى البشر أن تُحيطَ بها، أو تُحاسِبَ عليها، ولكن عبادة الله وتقواه قادرةٌ على أن تئِدَ

(١) قّ : ٦- ١١.
(٢) الأعراف : ١٧٩.

الجريمة المُبَيَّتَةَ قبل أن تُولَد، بل هي قادرةٌ على أن تُزيلها وهي وساوس قبل أن تُصبحَ همّاً أو عزماً.

ويَا لَهَا من تكاليف باهظة تدفعها الإنسانيةُ حين تنشدُ الأمنَ بعيداً عن الإيمان، أو تطلب السِّلْمَ في غير صفات الإنسان !!

إن هذا الكَمَّ الهائل من السلاح، والتنافس المسعور عليه - دفعاً لشر الإنسان - ليس وحده الذي يُحقّقُ للناس السلامَ والأمن، فما أيسر الغدر على نفوسٍ تجرَّدت من خشية الله وتقواه.

إن خضوعَ الإنسان وإسلامَ وجهه لله يُحقق الأمنَ في حياة الناس بلا تكاليف.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

إن طريق الأنبياء هو الطريقُ المنقذُ من التِّيه والضلال، لا يضلُّ مَن اتَّبعه، ولا يشقى مَن اهتدى بهُداه ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنعام : ٨٢.

(٢) المؤمنون : ٥٧- ٦١.

(٣) طه : ١٢٣.

٣- الإخلاص في النُّصْح:

لقد وقفنا - من قبل - على ما دعا إليه نوح عليه السلام قومه وأنذر به ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ (١)

لقد بلَّغَ نوحٌ عليه السلام ما أُمِرَ به، وطال مُكْثُهُ في قومه، واشتدَّ تحذيرُهُ لهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (٢)

لبِثَ فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ودعاهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سِرّاً وجهاراً، وبيَّن لهم النتائجَ والعواقبَ.. فما أفادهم إنذارُ، ولا ردعهم تحذيرٌ، بل أَصَرُّوا على كُفرهم، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾ (٣)

ومع وضوحِ المنهجِ واستقامتِهِ ترى القومَ - في كُفرهم وكِبرهم - يسلُكون كلَّ سبيلٍ لِلنَّيْلِ من نبيِّهم !

ومع المبالغةِ في الإساءة لا ترى من الدَّاعي إلى الله إلاَّ النُّصْحَ لهم، والإحسانَ إليهم، والحرصَ على هدايتهم وإنقاذهم.

---

(١) نوح : ٢، ٣.

(٢) العنكبوت : من الآية ١٤.

(٣) نوح : ٥- ٩.

وذاك هو شأن الدعاةُ المخلصين، الذين ينشدون رضا الله، ويُخلصون القصدَ له.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١)

عجباً ! الدَّاءُ الذي فيهم يرمون به نبيَّهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، والرسولُ الكريمُ يُجيبهم بهذا القول الراشد الحكيم ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

والقومُ تزدادُ إساءَتُهم، ويخاطب بعضُهم بعضاً؛ تشهيراً به وسخريةً منه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)، والرسولُ الكريمُ يلجأُ إلى ربِّه مُعرِضاً عن إساءتهم قائلاً: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

وهكذا ترى في أسلوب الأنبياء عِفَّةً، وإمساكاً عن مجاراة السفهاء، ولا تسمع منهم إلا الكلمةَ الصائبةَ، والحُجَّةَ البالغةَ.

وتبلغ السفاهةُ بقومه أن يطلبوا منه أن يأتيَهم بالعذاب؛ مبالغةً في الإنكار والجُحود، ونوحٌ عليه السلام لا يُبارحُ الحالَيْنِ: حالَ الجدال بالحق وبالتي هي أحسن، وحالَ اللجوء إلى الله كلَّما اشتدَّ إعراضُهم، وازدادت سفاهتهم.

---

(١) الأعراف : ٦٠- ٦٣.

(٢) المؤمنون : ٢٥.

(٣) المؤمنون : من الآية ٢٦.

وهذا ما يجب أن يكون عليه الدعاةُ إلى الله في كلّ زمان ومكان، أن يُحسنوا صلتَهم بالله، وأن يُحسنوا النُّصْحَ للناس.

* * *

وفي سورة أخرى من كتاب الله تعالى نقرأ هذه الآيات عن دعوة نوح عليه السلام، وهو يدفعُ إساءَتَهم بالتي هي أحسن، ويُقيم الحُجَّة عليهم، وينصحُ لهم، وهم يتماوتون في إساءتهم، ويُبالغون في استهزائهم وسخريتهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: تدبَّر هذه الآيات؛ فإنك واجدٌ فيها عِبْرةً وموعظةً وذكـــرى، ومنـــها تُدرك منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، وهم يهدون إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم.

إنك واجدٌ فيها، من جانب النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه:

الحُجَّة والبرهانَ.

والعدلَ في القول.

والإنصافَ في الحُكم.

والإخلاصَ في النُّصْح.

وترى نقيضَ ذلك كلِّه في سُلوك الملأ من قومه، وقد غاب عنهم أنَّ الحقَّ الذي يدعوهم إليه له نورٌ ونار، فمَن أَبَىَ النورَ فالنارُ موعدُه.

إنَّ الحقَّ الذي يدعوهم رسولُهم إلى اتِّباعه بيِّنٌ لا علَّةَ فيـــه، وإنمـــا العلَّـــةُ في النفوس، والنفوسُ إذا مالَتْ عن الحق، واتبعت هواهَا ضلَّت عن سواء السبيل.

يقولون - فيما يقولونه لنبيِّهم -: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ وهو قـــولٌ يقوله الأوَّلونَ، ويُردِّده الآخرون، وهو يُنبئ عن جهلٍ وفُقدان عقل.

وأيُّ غرابةٍ في أن يكون الرسولُ بشراً ؟!

وهل في مصلحتهم أن يكون الرسولُ ملكاً ؟!

---

(١) هود : ٢٥- ٣٤.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

إن النفوسَ حين تأبى الحقَّ تُجادلُ بالباطل، والباطلُ عَارٍ من الحُجَّة، لا برهانَ له.

يقولون: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

وهو قوْلٌ يقوله الأوَّلون، ويردده الآخرون، كأنهم قد تواصَوْا فيما بينهم على ما يقولون ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣)

وهو قولٌ ينُبئ عن كِبْرٍ وطُغيانٍ.

أَيَصْرِفُهُم عن الحقِّ أنَّ ضُعفاء الناس وفقراءَهم قد اتبعوه ؟!

وهم يزعمون أن اتِّباعهم للحق لم يكن عن تَرَوٍّ ولا فِكْرٍ ولا نَظَرٍ ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

وما درى هؤلاء أن الشرفَ - كلَّ الشرف - في اتباع الحق، لا في المال والمتاع.. وأن الأراذل هم الذين يتبعون الباطلَ، ولو كان لهم مِلءُ الأرض ذهباً.

---

(١) الأنعام : ٩.

(٢) الإسراء : ٩٤- ٩٦.

(٣) الذاريات : ٥٣.

ما دَرَوا أن أتباعَ الرسل هم الضعفاء، كما قال "هِرَقْلُ" عندما سأل أبا سفيان عن صفاتِ النبي ﷺ قائلاً له: « فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ ؟ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ » قال أبو سفيان: « بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ »، عندها قال "هِرَقْلُ": « هم أَتْبَاعُ الرُّسُلِ » (١)

وليس بِمَذَمَّةٍ ولا عيبٍ أنْ يُؤمنَ مَن يُؤمنُ - عند وضوح الحقِّ وظُهوره - دون تأخيرٍ أو انتظارٍ، بل من الواجب أن يكون.

ومن الواضح أنهم يطلبون من نبيِّهم أن يطردَ الضعفاء من مجلسه، وهم يجهلون أن هذا الكِبْرَ في نفوسهم هو الصارفُ لهم عن الهُدى واتباع سبيل الرُّشْد - لا الفقراء ولا الضعفاء - فليطردوه من نفوسهم، وعندئذ لا يجدون في صدورهم بُغْضاً للحق وأهله، بل يُحبونهم ويُؤثرونهم على أنفسهم؛ وفاءً للحق، واستجابةً لهَدْيه.

فإنَّ أهلَ الكِبْرِ يُعاقَبونَ من الله بِصَرْفِهم عن آياته ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٢)

وما طَلَبَهُ الملأُ من قوم نوحٍ قد طَلَبَهُ الملأُ من قريشٍ.. طلبوا من نبيِّهم ﷺ أن يطردَ الضعفاءَ من مجلسه؛ لأن الرؤساءَ والكبراءَ تأبى عليهم مكانتُهم أن يجلسوا مع هؤلاء.

ويأتيه الوحيُ من السماء :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا

(١) رواه البخاري.

(٢) الأعراف : ١٤٦.

عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

والرسل الكرامُ أهلُ تواضعٍ، وبرٍّ، وعدلٍ، ورحمةٍ.. ولذا أجاب نوحٌ قومَه ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

ثم يقول: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٤)

نَهْجٌ كريمٌ يتعلمه الناسُ من المرسلين.

٤- إن العاقبة للمتقين:

إنَّ الأنبياءَ منصُورونَ ولَوْ لَمْ يتبعهم أحد.. والأُمورَ بعواقِبِها، والمقدِّماتِ

(١) الأنعام : ٥٢.
(٢) الكهف : ٢٨.
(٣) هود : ٢٩، ٣٠.
(٤) هود : من الآية ٣١.

بنتائجها ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (١)

نعم قد يُسْتَدْرَجُ الباطلُ، ويُمْلَى لَهُ، فيُفْتَنُ به الذين يُريدون الحياةَ الدنيا، فإذا جاء الحقُّ قُضِيَ الأمرُ، وزَهَقَ الباطلُ، وخَسِرَ هنالك المُبْطِلون.

وفي العاقبةِ ترى السِّنينَ الطِّوَال قد تضاءلت في حِسِّ الإنسان، فلم تَعُدْ سوى دقائق وثوان.

لقد لَبِثَ نوحٌ عليه السلام في قومه أَلْفَ سَنَة إلاَّ خَمْسينَ عَاماً وما آمنَ معه إلا قليلٌ، ولما جاءت العاقبةُ أخذهم الطوفانُ، ولم يجد الظالمونَ ما يعصمهم منه؛ إذ لا نجاةَ لَمن اعتصمَ بغير الله ولو آوى إلى قِمَمِ الجبال، ولو كان ابنَ نبيٍّ ورسول..

وهذه العاقبةُ - وهي آيةٌ من آياتِ الله - تُذكِّرُنا بما تصيرُ الأمورُ إليه، وتُبصِّرُنا بما يجبُ أن نكونَ عليه.

أَلْف سَنَة إلاَّ خَمْسينَ عَاماً يُقيمها نوحٌ عليه السلام في قومه، يدعوهم إلى اتِّباع الحقِّ، في ليلٍ ونهار، وهُم يسخرون ويستهزئون، غافلين عمَّا يُساقونَ له ويُسْتَدْرَجُونَ إليه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

(١) الصافات : ١٧١- ١٧٣.

(٢) نوح : ٥- ١٠.

وهَا هِي السُّنُونُ تمضي، والسَّاعةُ الفاصلةُ تأتي، والقومُ في ذِرْوَةِ نشْوَتِهم بما يُسْتَدْرَجُونَ به، في غمرتِهم ساهُون عمَّا يصيرون إليه، يأتي أمرُ الله؛ إغاثةً لنداء، واستجابةً لدعاء، فكان نَصْراً لكلمة الحقِّ، وإغراقاً لكُلِّ مَن كَفَرَ بها أو جحدَها، وعبرةً للزَّمنِ كُلِّه، تُذكِّرُ المؤمنينَ وتُنذرُ المكذبين.

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝١٧ ﴾ (١)

تلك هي العاقبةُ.. آيةٌ من الله يتذكَّرُ بها من يتذكَّرُ، ويَعْتَبِرُ بها مَن يَعْتَبِرُ.

وكَمْ من ناسٍ تُلهيهم العاجلةُ، وتشغلهم عن الآخرة !

كَمْ من ناسٍ تقعُ الأحداثُ أمامَ أنظارهم فَيَتَلَقَوْنَها ببَلادةِ حسٍّ وعَطَانَةِ فِكْرٍ، وتُتْلَى عليهم الآياتُ وهم غافلون عن دَلالتِها، لاَهُونَ عن عِبرتِها !!

إنَّ المقدماتِ لا بُدَّ أن تصيرَ إلى نتائجها، والأمورَ لا بُدَّ أن تنتهي إلى عاقبتِها، ومَن أدركَ العواقبَ أيْقَنَ أنَّ الحقَّ لا يُهْزَمُ أبداً، وأنَّ ما يراهُ من زَهْوِ الباطلِ زَبَدٌ يذهبَ جُفَاء، ولا يمكُثُ إلاَّ ما ينفعُ الناسَ ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢)

---

(١) القمر : ٩- ١٧.

(٢) الرعد : من الآية ١٧.

أَلْف سَنَة إلاَّ خَمْسينَ عَاماً لبثها نوحٌ عليه السلام في قومه، ولما جاء الطوفانُ - بعد إعذارٍ وإنذار - ترى كُلَّ شيءٍ من أَمْرِ المُبطلين الظالمين قد انتهى كأن لم يكن إلاَّ ساعةً من نهار.

وأنت تتدبَّرُ القرآنَ ترى تلاحُقَ الأحداث كأنما كانت الدَّعْوَةُ في الصباح، والطوفانُ في المساء ! مع أن نوحاً عليه السلام قد لَبِثَ في قومه السِّنينَ الطُوَال ! ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

إنَّ حديثَ القرآن عن منهج الأنبياءِ فيه بيانٌ لسُنَنِ الله في خَلْقه، ولَمْ تكونُ العاقبةُ، وهو حديثٌ مُوَجَّهٌ إلى الناس جميعاً ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (٢)

٥- طبيعة الجزاء في منهج الأنبياء:

إنَّ الرُّسُلَ والأنبياءَ دُعَاةُ إصلاحٍ.. والإصلاحُ سبيلُهُ الحقُّ والعدلُ..

والحقُّ من ربِّك، وهو الذي يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم، والحقُّ لا يَتَّبِعُ هوى الناس، بل يُتَّبَعُ ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (٣)

---

(١) العنكبوت : ١٤، ١٥.

(٢) الأنفال : ٤٢.

(٣) المؤمنون : من الآية٧١.

والعدلُ لا بُدَّ له من ميزانٍ يحتكمُ الناسُ إليه، ويزِنون أمورَهم به.

ومن رحمةِ الله بالخَلْق أن أرسلَ رُسُلَهُ بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسط.. وذاك هو السبيل ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ (١)

والله تعالى هو الذي يُجازي العبادَ على أعمالهم، وموقفهم من منهج الرسل ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

ولا عُذْرَ بعد بيانٍ، ولا حُجَّةَ بعد تبليغٍ وإنذار ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (٣)

ولا ظُلْمَ في جزاءٍ، ولا محاباةَ في حسابٍ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٤)

* * *

لقد رأينا ما كان من ابنِ نوحٍ عليه السلام وما جرى معه، فقد يكونُ ممَّنْ أظهرَ لوالده

---

(١) الأحزاب : من الآية ٤.

(٢) النجم : ٣١.

(٣) النساء : ١١٥.

(٤) النساء : ١٢٣، ١٢٤.

إيماناً، وأبطَنَ كفرَه، فجُوزِيَ مع الكافرين، وكان من المُغْرَقين.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

لا مُجامَلَةَ ولا مُحابَاة.. بل كُل إنسانٍ مأخوذٌ بذنبه، مُحاطٌ بخطيئته، وليس بين الله وبين أحدٍ نَسَبٌ إلاَّ طاعته.

والجزاءُ في منهج الأنبياء - على هذا النحو - يحققُ نَمَطاً من السلوك لا يُحققه غيرُه، ويجعلُ المؤمنَ به متميِّزاً في السِّر والعَلَن، فلا يُبدي وفاءً ويُخفي غَدراً، أو يُظهرُ إيماناً ويُبطِنُ كُفراً، بل يَصْدُقُ مع نفسه، ومع الناس - في جميع الأحوال - لأنه يَصْدُقُ مع الله الذي يُوقِنُ بالرجوع إليه، والحساب بين يديه، وهو يعلمُ أن الخَلْقَ خَلْقُهُ، والهدايةَ منه وحدَهُ، والإيابَ إليه لا إلى غيرِه، والرسلَ يُبلِّغُونَ وعلى الله الحساب.

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢)

إنَّ هذا التميُّزَ في منهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، واتِّصال العملِ في الدنيا بالجزاء في الآخرة، هو - وحده - سبيلُ الإصلاحِ في الدنيا، والبُعْد عن الإفساد فيها، وهو الذي ينفي العبثَ والباطلَ في تصوُّرِ الناسِ وأعمالِهم، وما كان الخَلْقُ عبثاً ولا باطلاً.

---

(١) هود : ٤٥- ٤٧.

(٢) هود : ٣٤.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: وعندما تقرأُ في كتاب ربِّك ما جرى من قومِ نوح عليه السلام، وما وقع عليهم من حسابٍ وجزاءٍ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣) عليك أن تتدبَّرَ أمرَكَ، وأن تُدرِكَ ما تؤدِّي إليه الخطايا والذنوب.. عندئذٍ تُوقنُ أن الاستقامةَ هي سبيلُ النجاةِ، وأنَّ الإيمانَ بمنهج الأنبياء واتباعه هو لخير دُنيانا وأُخرانا.. هو للبرِّ فيما بيننا، ولإقامة العدل في حياتنا؛ رحمة من الله بعباده، والله تعالى غني عن العالمين.

* * *

(١) المؤمنون : ١١٥، ١١٦.
(٢) صٓ : ٢٧- ٢٩.
(٣) نوح : ٢٥.

مع نبيِّ الله هودٍ عليه السلام في دعوته

أخي المسلم:

لا زلتُ معك في حديثِ القرآنِ الكريم عن أنبياء الله تعالى، وهو حديثٌ يُتْلَى عليك لتعرفَ سُنَنَ الله في خَلْقه، وتُدرك العواقبَ، فتحذر ما يؤدِّي إلى الخُسران وسُوءِ العاقبة.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

وقد التقيتُ معكَ في حديثٍ سابقٍ على مَأْدُبةِ القرآن الكريم وهو يَقُصُّ علينا ما جرى من قوم نوح عليه السلام، ويُذكِّرنا بالعواقب وما تُؤدِّي إليه الذنوب والمعاصي، فتدبَّر هذه الآيات، وخُذْ العِبرةَ لنفسكَ، ولا تكن من الغافلين.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (٢)

إنَّ مَن يتدبَّرُ العواقبَ يُوقِنُ أنَّ الحقَّ لا يُهزَمُ أبداً، فيستمسكُ به، ولا يَحيدُ عنه. والحقُّ من ربِّك، وقد تكفَّل بحِفْظِه ونُصْرَةِ أهله.

---

(١) يوسف : من الآية ١١١.

(٢) آل عمران : ١٣٧- ١٣٩.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢ ﴾ (١)

ولِدُعَاة الحقِّ منطقٌ رشيدٌ وأدبٌ فريد، وللظالمين سُوءُ قَصْدٍ وإفساد وجُحود، وما هُم عليه (باطلٌ) لا يلبثُ أن يزول، وما هُم فيه (زَبَدٌ) يذهبُ جُفاءً، ومع مجيء الحقِّ لا نرى الباطلَ يُبدئ ولا يُعيد.. ذاكَ هو حُكْمُ الله الذي لا يُردُّ، وسُنَّتُهُ التي لا تتبدَّل ولا تتحوَّل ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ ﴾ (٢)

* * *

ومع نبيِّ الله هودٍ عليه السلام؛ لِنَرَى ما جاء به من البيِّنات، وما دعا إليه، ونرى النتائجَ والعواقبَ لَمَنْ آمن به ومَنْ صَدَّ عنه.

دعوة هود عليه السلام في سورة الأعراف :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ

(١) غافر : ٥١، ٥٢.

(٢) سبأ : ٤٨، ٤٩.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ
فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ
وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (١)

يَا الله ! ما الذي دعا إليه هودٌ عليه السلام حتى يُعادَى ؟!

دعا قومَه إلى ما يُنقذهم، فرَموه بالسفاهةِ والكذب ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لكنَّ أخلاقَ النبوة - التي رُبِّيَ عليها - تأبى عليه مجاراة السفهاء، ولذا لم يرُد سيئتهم بمثلها، بل جادلهم بالتي هي أحسن ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هكذا - في كلمات نَيِّرَة، واثِقَة، رَاشِدَة - دعاهم إلى الحقِّ، مُعرضاً عن إساءتهم وجهالتهم.

كلماتٌ فيها ما فيها من أدب النبوة وصدقِها، وإخلاصِها في النُّصْح والتبليغ..

---

(١) الأعراف : ٦٥- ٧٢.

والملأُ من قومه كُلَّما زاد في نُصحهم وإرشادهم، ازدادوا في جهالتهم وعُتُوِّهم وجُحودهم !

يُذكِّرُهم بنعمة ربِّهم، ويُبَصِّرُهم بعاقبةِ عِصيانهم، فيتعجلون العذاب الذي حذَّرهم منه، وأنذرهم بوقوعه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

إنَّ مَنْ جاءهم بالذِّكْرِ رجلٌ منهم لا يجهلونه، ولا يُنكرون صِدْقَهُ وأمانَتَهُ، وقد جاءهم بالذِّكْرِ من ربِّهم، وللرَّبِّ عليهم فضلٌ، أيّ فَضْلٍ، وهم لا يُنكرون ما له من فضل في خَلْقٍ أو رِزْقٍ، فلا موضعَ لعُجْبٍ، ولا عُذْرَ في إعراضٍ، بل العُجْبُ - كُلُّ العُجْبِ - أنْ يُعرِضوا وقد جاءهم ذِكْرٌ من ربِّهم على رجلٍ منهم ! وأن يستخلفهم الله من بعد قومِ نوحٍ - وهم يعلمون ما جرَى لهم، وما وقع بهم حين أصرُّوا على تكذيب نبيِّهم - فلا يعتبِرون.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

* * *

دعوة هود عليه السلام في سورة هود :

لقد أوردنا - من قبل - ما جاء في سورة (الأعراف) في قصة هودٍ عليه السلام، ورأيتَ معي ما كان منه، وما جرى فيهم.. وما كان منه جديرٌ أن يُقتَدَى به، وما

(١) الأعراف : ٦٩.

جرى من قومه وما وقع بهم يُحْذَرُ ويُجْتَنَبُ، وفي قَصصهم عبرةٌ، وفيه للمؤمنين هدىً ورحمةٌ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

ومع هود عليه السلام في سورة (هود):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) هود : ١٢٠.

(٢) هود : ٥٠- ٦٠

أخي المسلم: لقد نَصَحَ هودٌ عليه السلام لقومه، وبصَّرهم بسُوءِ ما هُم عليه من عبادة غير الله، وذكَّرَهم بنعمةِ ربِّهم، ودعاهم إلى عبادتِه وحده لا شريك له، وإلى ما يُصلحهم في الدنيا والآخرة.. مُحتسباً لا يطلبُ منهم أجراً، مُبشراً ومنذراً، يُعلنُ توكُّله على ربِّه، وبراءَته من شركهم، بعد أن دعاهم إلى أن يستغفروا ربَّهم ثم يتوبوا إليه؛ ليكفِّرَ ذنوبَهم، ويُيَسِّرَ رزقَهم، ويَزيدَهم قوةً إلى قوَّتهم.. والقومُ يُسيئون ويجهلون، غافلين عن العواقب، غير مُبالين بما يقع لهم ويحيقُ بهم.

﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١)

وجاءت العاقبةُ نجاةً لمَن آمن به، وخُسراناً لمَن طغى وتجبَّر.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) هود : ٥٣- ٥٧.

(٢) هود : ٥٨- ٦٠.

أخي المسلم: إن القرآنَ المجيد - وهو يُبصِّرنا بمنهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله - يُرينا سُنَنَ الله في خَلْقِه، ويَهدينا للتي هي أقْوَم، وسُنَنُ الله لا تتحوَّلُ ولا تتبدَّلُ.

ومن قبلُ رأينا ما جرى لقومِ هودٍ، وما وقع عليهم حين جحدوا بآياتِ الله وعَصَوْا رُسُلَه.. أُخِذُوا بذنوبهم، وهلكوا بعصيانهم، وخُوطِبَ مَنْ بَعدهم بما وقع منهم، وما جرى لهم؛ إعذاراً وإنذاراً ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]

تذكيرٌ بما وقع، يُتلى على الناس، ويُبيِّنُ لهم، ولا حُجَّةَ بعد بيانٍ، ولا عُذْرَ لمن يُشاقق الرسولَ من بعد ما تبيَّنَ له الهُدى.

ومن الناس مَن تنفعه الذِّكرى، ومنهم مَن لا تُوقظه إلا سكْرَةُ الموت.

وسيظلُ القرآنُ الكريمُ يُذَكِّرُ ويُبَصِّرُ، ويُنذِرُ ويُبَشِّرُ.. فمَن اتَّبع هُداه فاز ونجا، ومَن أعرض عنه ضلَّ وهلَك ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

(١) القمر: ١٨- ٢٢.

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ذاك حديثُ القرآن عمَّن جحدوا بآياتِ ربِّهم، وعَصَوْا رسلَه، واتَّبَعُوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيد.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣)

إنَّ منهجَ الأنبياء له حُمَاةٌ، والويْلُ - كُلُّ الويْلِ - لَمن جحدَه أو عاداه.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الأحقاف : ٢١- ٢٦.

(٢) الذاريات : ٤١، ٤٢.

(٣) هود : ٦٠.

(٤) الطلاق : ٨- ١١.

مع نبيِّ الله صالح عليه السلام في دعوته

رأيْنا – من قبل – ما كان من قوم هودٍ عليه السلام حين دعاهم إلى عبادةِ الله وحده لا شريك له، وكيف أنكروا ما جاءهم به وما دعاهم إليه.

لقد بلغ بهم الجُحُودُ والنُّكْرانُ أنْ طلبوا منه أن يُعَجِّلَ لهم العذاب ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)، وتحقَّقَ الوعيد، وقُطِعَ دابِرُ الذين كذَّبوا بآياتِ الله.

واستخلَفَ اللهُ من بعدهم قومَ صالحٍ، استخلفهم والعِبْرَةُ قائمة أمام أنظارِهم، وأَرسلَ فيهم رسُولاً منهم يُذكِّرُهم بنعمة ربِّهم، ويدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له، فماذا كان موقفهم من الدعوة ؟ وكيف واجهوها ؟

ذاك هو حديثُ القرآن الكريم عن دعوة صالح عليه السلام.

صالح يدعو قومه إلى عبادة الله :

دعا صالحٌ عليه السلام قومَه إلى ما دعى إليه الرُّسُلُ من قبل.. دعاهم إلى توحيد الله،وإخلاص العبادة له دون سواه، وذكَّرهم باستخلاف الله لهم في الأرض من بعد (عادٍ) قوم هود، وأرشدهم إلى الاستغفار والتوبة إلى الله القريب المجيب.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ

(١) الأعراف : من الآية ٧٠.

غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

إنَّ صالحاً عليه السلام لم يكن غريباً عليهم، يجهلون نَسَبَهُ وسيرته، بل هو منهم، يعرفون رَجَاحَةَ عقله، وشَرَفَ نَفسِه، وسُمُوَّ خُلُقِه، وما دعاهم إلى شيءٍ يُجْحَدُ أو يُنْكَرُ ! ومع هذا كذَّبوا به كما كذَّب الذين من قبلهم، ولم يعتبروا بما جرى لهم، وما وقع بهم.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٢)

كما سَخِرَ به الملأُ من قومه، وزَعمُوا أنه بعيدٌ عن الصِّدق، لم يأتهم بالحق.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣)

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) هود : ٦١.

(٢) الشعراء : ١٤١- ١٤٥.

(٣) الأعراف : ٧٥، ٧٦.

(٤) الشعراء :١٥٣، ١٥٤ .

لقد أبى المستكبرون دعوةَ الحق، وكذَّبوا صالحاً، ونالوا منه وهم يعلمون صِدْقَ ما دعاهم إليه وما أمرهم به، وقُبْحَ ما نهاهم عنه وحذَّرهم منه، ومع هذا تراهم يقولون لنبِّيهم: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

يقولون هذا وما يدعوهم إليه ليس موطنَ رِيبةٍ أو شَك، وما ينهاهم عنه لا يستمسك به إلاَّ من حُرِمَ الهداية وفَقَدَ العقل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ قول يقوله الملأ من قوم صالح، يردِّده مَن يكذِّبُ المرسلين بلا رُشدٍ أو علم، ولا يقولون شيئاً عن صوابٍ وخطأ ما كان عليه آباؤهم وهم يَعْبُدون صنماً، ويُقدِّسون حَجَراً !!

والنفوس إذا تدنَّتْ فَسَدَتْ وأفسدت، وإذا أشركت بربِّها ضلَّت وأضلَّت، ولا حمى للإنسان - من فسادٍ وإفسادٍ - إلاَّ بإسلام الوجه لله، وإخلاص الدِّين له، ولا مُنقذَ له من ضلالٍ إلاَّ بهداية ربِّه وحُسْن الاستجابة لأمره.

صالح عليه السلام يُذكِّرُ قومَه بنعمة الله :

دعا صالحٌ عليه السلام قومَه إلى عبادة الله وعدمِ الإشراكِ به، وحذَّرهم من سُوءِ العاقبة إنْ هُم أصرُّوا على المخالفة والعصيانِ، وأمرهم أنْ يستغفروا الله ويتُوبوا إليه؛ وفاءً

(١) هود : من الآية ٦٢.
(٢) البقرة : ١٧٠.

لنِعَمه، وخَوْفاً من عذابه، وقد استخلفهم من بعد عاد - الـذين دمَّـرَ الله علـيهم، وأخذهم بذنوبهم - فليعتبروا بما وقع لهم، وليحذروا أن يُصيبَهم مْا أصابهم.

كما ذكَّرهم بنِعَمِ الله عليهم، وقد كانت هذه النِّعَم جـديرة بـأن يسـتجيبوا لدعوته، ويُخلصوا عبادتهم لله تعالى صاحبِ هذه النِّعَم ومُسديها.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

دعاهم إلى ما دعا إليه كُلُّ نبيٍّ ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾

وعرَّفهم أن الله - وحده - هو المستحق للعبادة دون سُواه ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

خَلْقٌ، ورِزْقٌ.. ومَن غيرُه يخلُقُ أو يرزُقُ ؟

ومَن لا يَخْلُقُ لا يستحقُّ أن يُعبَدَ، ومَن لا يرزُقُ لا يستحقُّ أن يُشكَرَ.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

* * *

(١) هود : ٦١.

(٢) العنكبوت : ١٧.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١)

نِعَمٌ أُعطِيَتْ لهم، ورخاءٌ سَادَ ديارَهم، فما حَفِظُوا النِّعمَةَ، ولا شكروا مَن أنعَمَ عليهم بها، مع أنه قد استخلفهم بعد قومٍ دُمِّرُوا بذنوبهم، وأُخِذُوا بمعاصيهم !

ومن الناس مَن تُطغيهم النِّعمةُ، وتُلهيهم عن ذِكْر الله، وتَشغلهم عمَّا يجبُ أن يكونَ، فلا يَفيقُونَ من سكرتها ونَشوتها إلا بعذابٍ يَحيقُ بهم، أو بلاءٍ ينْزِلُ بساحتهم، وربما استُدرِجُوا بمزيدٍ من النِّعَم، فظنُّوا - وهم عُصاةٌ - أنهم مُكرَّمُون، وما دَروا أنهم مُستَدْرَجُون.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

* * *

قومُ صالحٍ يطلبونَ من نبيِّهم آيةً:

ولم يكُف الملأُ من قومِ صالحٍ برفْضِ ما دعاهم إليه، والإعراض عمَّا ذكَّرهم به،

(١) الأعراف : ٧٤.

(٢) الأنعام : ٤٢ - ٤٥.

بَلْ امتدَّ بهم الجُحودُ والنُّكران إلى أن يطلبوا منه آيةً تُبرهن لهم على صِدْق دعوته.

وما طلبوا الآية رغبةً في الهداية والإيمان، وإنما طلبوها مُبالغةً في تكذيبه، ورغبةً في إظهار عجْزِه، وما دَرُوا أن الآية إذا جاءت فلن يُنظَرُوا بعد جُحودها.

طلبوا الآيةَ فجاءتهم بعد إنكارهم أن يكون النبيُّ بشراً مثلَهم؛ جريا على عادة المكذِّبين من قبلهم ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (١)

لقد عرف نبيُّ الله إسرَارهم على الكُفْر، واستمساكَهم بالباطل، وأنَّ ظهور حُجَّته لن تزيدهم إلاَّ إصراراً واستكباراً ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٢)

ومع هذا نرى صالحاً عليه السلام يقطع عليهم السبيل في الجُحود والإنكار، ولا يدع لهم حُجَّةً في تكذيبٍ وإعراض، فيأتيهم بالناقة آية من ربِّهم، ويحذرهم من الفَتْكِ بها، ويخوِّفهم من الإقدام على قَتْلِها.

﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٣)

﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا

---

(١) الشعراء : ١٥٤.

(٢) هود : ٦٣.

(٣) هود : ٦٤.

تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

ومضت الأيامُ والناقةُ تسعى بينهم، آيةٌ من آيات ربِّهم، يُبصرها المؤمنون، ويجحدها الكافرون، تَرِد الماء يوماً، وتُصدُّ عنه يوماً، فأيقن مَنْ أيقن بِصِدْق نُبوَّته، ولكن المستكبرين من قومه ضاقوا بهذه الآية، ورأوها سَنَداً له يزيدُ من اتباعه، ويُبطلُ لهم كُلَّ حُجَّة في تكذيبه والإعراض عنه، فبيَّتوا مكرهم، وعملوا على دحضها وقتلها، وغاب عنهم أن الله مطَّلِعٌ عليهم، يعلم ما تُكنُّه صدورُهم وما تُخفيه نفوسُهم.

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾ (٢)

﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣)

وظنوا أنهم بما فعلوا قد أبطلوا آيته، وأذهبوا معجزته، فقالوا – مبالغةً في التكذيب، وإصراراً على الطُغيان والجحود -: ﴿ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ .. ظنُّوا أنهم – وقد فعلوا ما نهاهم عنه – قد أفلَتُوا من عقابٍ، وأنهم قد سبقوا، ولن يُصيبهم ما أنذرهم به من عذابٍ قريب.. ونَسوا أن كُلَّ تدبيرٍ للباطل زاهقٌ كما يزهَقُ الباطل ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾ (٤)

ونبي الله يرُدُّ عليهم قائلاً: ﴿ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (٥)

---

(١) الأعرف : من الآية ٧٣.

(٢) الأعراف : من الآية ٧٧.

(٣) القمر : ٢٩.

(٤) فاطر : ٤٣.

(٥) النمل : من الآية ٤٦.

قوم صالح يمكرون به :

من أعجبِ ما تراه في دُنيا الناس أن تُخاطِبَ إنساناً بالحُجَّة والبيِّنة، فيُجيبـــك بالإساءة والسخرية !

وأعجبُ من ذلك أن يحاول النَّيْلَ منك بالتشهير وسُوء التدبير !!

وأكبرُ من ذلك وأعظمُ أن يقعَ الاعتداء على الدَّاعين إلى الله، الناصحين الأمناء، الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدِلون !!!

لقد رأيتَ - من قبل - ما كان من قوم صالح في عُتُوِّهم عن أَمْرِ ربِّهم وعصيانهم رُسُله، واستخفافهم بكُـــلِّ تحذيرٍ وإنذار، وارتكـــابهم ما حذَّرهم منه ونهاهم عنه.

لقد حذَّرهم أنْ يمسُّوا الناقةَ بسوء، فاجترحُوا الذَّنْبَ، واقترفوا الإثم، وتمادَوا في استخفافهم، وسألوه أن يُعجِّلَ بعذابهم، ويأتيهم بما وعدَهم.

وانتقل المكرُ بالآية إلى المكرِ بصاحبِ الرسالة والمبلِّغ لها،فاجتمع نفَرٌ من قومه، وتقاسموا - فيما بينهم - أن يُباغتوه وأهله، من غير أن يراهم أحدُ، وكتمـــوا الأمـــرَ، وبيَّتوا الشَّر، واضمروا له ولأهله القتْلَ، ولكن الله أحبط مكرَهم، وردَّ كيدَهم، ونجَّى نبيَّه ممَّا أرادوا به، وانقذه والذين آمنوا معه برحمة منه، وأخذ الظالمين بظُلمهم، ودمَّرهم بكُفرهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ

وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

* * *

إنَّ منهجَ الأنبياء بَيِّنٌ واضِحٌ، في مقدِّماته ونتائجِه، في بدايته وغايته..

طريق نَيِّرٌ لا لَبْسَ فيه، مستقيمٌ لا عِوَجَ معه..

ومَن جَحَده أو عَاداه، كان عاقبةُ أمْرِهِ خُسْرًا.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۚ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣)

إن الحقَّ لا يُعادى، ومَن كذَّب بالحقِّ اضطرب أمرُه، ومَن عاداه دُمِّرَ، وساءت

(١) النمل : ٤٨- ٥٣.

(٢) الشمس : ١١- ١٥.

(٣) القمر : ٢٣- ٣٢.

عاقبتُه، ولا نجاةَ إلاَّ لَمن آمن بالحقِّ وصدَّق المرسلين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: أرأيتَ أن الحقَّ الذي جاء به الأنبياءُ لا يُعادَى، وأنَّ الله - الذي أرسلهم بالحقِّ - قد وعَدَ بنصْرِهم ونَصْرِ مَن آمن بهم.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) هود : ٦٦- ٦٨.

(٢) غافر : ٥١.

(٣) الصافات : ١٧١- ١٧٣.

مع نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعوته

جديرٌ بنا ونحن نتدبَّر منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، أن نعرف ما كان عليه إبراهيم عليه السلام؛ لنتَّبع مِلَّته، ومَن اتَّبع مِلَّته كان أولى الناس به ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

لقد كان إبراهيمُ عليه السلام جامعاً لخصال الخير، مائلاً عن الباطل إلى الحقِّ، مُطيعاً لربِّه، شاكراً لأنعُمه ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٢)

ومَن اجتباه الله، وهداه إلى صراطٍ مستقيم جديرٌ أن نتَّبعَ مِلَّتَه، وأن نقتدي بهُداه، وأن يكون فيه أُسوة لمَنْ كان يرجو الله واليومَ الآخر ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٣)

وفي القرآن الكريم بيانٌ لسيرته، وحديثٌ عن دعوته، وإظهارٌ لمواقفه.

---

(١) آل عمران : ٦٧، ٦٨.

(٢) النحل : ١٢٠- ١٢٢.

(٣) النحل : ١٢٣.

ويستطيع المُتدبِّرُ في كتاب ربِّه أن يعرفَ منهجَه في الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى، وأن يُدركَ ذلك من خلال حواره مع أبيه، وحوارِه مع قومه، ويرى ثباتَه وصِدْقَه، وحُسْنَ توكُّله على ربِّه، كما يرى مِنَّةَ الله عليه وفضلَه ورحمتَه وهو يرُدُّ كيدَ المتآمرين عليه، ويجعلهم الأخسرين.

حواره عليه السلام مع أبيه :

ولنستمع إلى ما قاله إبراهيمُ عليه السلام لأبيه وهو يدعوه إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وقد كان والدُه يتَّخذ من الأصنام آلهةً يعبدها، ويتقرَّبُ إليها.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [1]

أرأيت كيف دعا إبراهيمُ إلى عبادة ربِّه.. وكيف كانت حُجَّته فيما دعا إليه.

---

(١) مريم : ٤١- ٥٠.

إن مَن يدعو إلى الحقِّ لا يلجأ إلى غير الحق في بيانِ ما يدعو إليه، وفي الحقِّ حكمةٌ ورُشْدٌ،وفيه غِنىً ورحمةٌ لصاحبه، ولَمن جاء به أدبٌ وخُلُقٌ، لا يُجاوزه مهما أساء مَن يخاطبه.

وأنت ترى ذلك في دعوةِ إبراهيم عليه السلام وهو يُخاطب أَباه بالقول اللين، ويُناديه بالكلمة التي تحمل معنى الصِّلة والتراحم، وتمتزجُ فيها العاطفةُ بالصدق، والنُّصحُ بالبِرِّ، والبيانُ بالحُجَّة والبرهان ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؟! [1]

فأي مصلحة تعود إليك وأنت تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصرُ، ولا يُقدِّم لك نفعاً ولا يدفعُ عنك ضُراً، ولا يملك لك حياةً ولا موتاً ؟!

إن مَن يعبدُ غيرَ الله يوالي الشيطانَ (وهو عدوٌّ، وللرحمن عَصِيٌّ)، ومَن حاد عن الصراط السَّويِّ اقتادته الشياطينُ إلى سُبُلٍ مُضلَّة مُهلكة، ومن البِرِّ بمن تدعوه والرحمة به أن تُحذِّرَه من اتِّباع السُّبُل، وأن تُبصِّرَه بالعواقب والنتائج، وتُرغِّبه في اتِّباع الصراط المستقيم، صراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

وما على الداعي إلا أن يُبلِّغَ في حِكمة ورُشْد، وهدايةُ (التوفيق) بيد الله وحده ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [2]

لقد بذل إبراهيمُ عليه السلام النُّصْحَ لأبيه، ولم يألِ جُهداً في تبصرته وتذكرته، والإحسان إليه، والحرص على هدايته ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [3]

---

(١) مريم : ٤٢.

(٢) الكهف : من الآية ١٧.

(٣) القصص : من الآية ٥٦.

وهذه الحقيقة لها أثرُها البالغ في حُسْنِ التوجُّه إلى الله، والاستعانة به، وصِـدْق الرجاء فيه، كما أنَّ لها أثرُها في تواضع النفس واعتدالها، وبُعدها عمَّا يُبطلُ العملَ مِنْ مَنٍّ أو أذى، أو يُحبطه من شِركٍ أو رياءٍ.

وما أكرمها من كلماتٍ ينطقُ بها مَن أُوحِيَ إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

ذاك هو الطريق، وهو ما دعا إليه الأنبياءُ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٢)

موقف أبيه منه:

لقد رأينا – من قبل – ما كان من إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وكيف دعاه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاه عمَّا كان عليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الكهف : ١١٠.

(٢) الأنعام : ١٥٣.

(٣) مريم : ٤٢ – ٤٥.

هذا ما كان منه مع أبيه.. رِفْقٌ، ولِينٌ، وحُجَّةٌ، وبُرهانٌ، وإحسانٌ إليه، أيّ إحسان.. فماذا كان من أبيه ؟ ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

ومع فظاظة القول، وقسوة التهديد لم نَرَ إبراهيمَ عليه السلام يميلُ عن منهجه، أو يُبارِح ما اتُّصِفَ به من رُشْدٍ وثباتٍ وحكمةٍ ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢)

استقامةٌ على منهج الحقّ، ودعوةٌ إلى الله بالكلمة النَّيِّرَة والخُلُقِ القويم، وحُسْن توكُّل على الله في مواجهة مَن يطغى ويُسيء..

أخلاق النبوة تقترن بصِدْق الكلمة.. فلا يرى مَن يستمعُ إلى الكلمة تناقضاً بين ما يُقال وما يُفْعَل، فإن النبي الكريم إذا دعا إلى عبادة الله كان أصدقَ الناس في إخلاص الدين لله.

إبراهيم عليه السلام يعتزلُ أباه:

هكذا يعلنُ نبيُّ الله إبراهيمُ عن دعوته إلى الله بقوله وفعله.. وها هو – الآن – يعلنُ براءته من أبيه واعتزاله لما يعبد من دون الله ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣)

الأب أبٌ وله حقٌ، والله هو الخالق للأب والابن، وكلمته هي التي تُسمَع،

---

(١) مريم : ٤٦.
(٢) مريم : ٤٧.
(٣) مريم : ٤٨.

وأمره هو الذي يجب أن يُطاع « ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق ».

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (١)

إن الإيمان يُحدِّد للإنسان مَسَارَه، ويضبط سُلوكَه، ويجعل صِلتَه بغيره بدافعٍ من مرضاتِ الله، لا من هوى النفس. وميزانُه - فيما يقبل أو يرُد - شرْعُ الله وما نزل من الحق ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

وهكذا الدِّين - في جوهره - طاعةٌ واتباعٌ.

وهذا إبراهيم عليه السلام في - منهجه - يبرأ مما يبرأ الله منه، ولا يجدُ في قلبه مودَّةً لمن أشركَ به أو عاداه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ ﴾ (٣)

ولم يكن هذا الموقف من إبراهيم عليه السلام - بادئ ذي بدء - دون إعذارٍ وبيان، بل كان بعد أن أخلص النُّصْحَ لأبيه، وبصَّره بما يجب أن يكون عليه من الوفاء لله وإخلاص الدين له.

وهذا ما يجب أن يكون عليه الدعاة إلى الله في كُلِّ زمان ومكان.

---

(١) الممتحنة : من الآية ٤.

(٢) الأحزاب : ٣٦.

(٣) التوبة : من الآية١١٤.

يَصْدُقون مع الله، ويُخلصون النُّصْح لعباده، في حكمة ورُشد، ورحمة وبِـرٍّ، وخُلُـق كريم يدعو إلى حُبِّ الناس لهم، وشُعورهم بهم، خُلُق يُعلِّم الناسَ أن يتنافسوا على المكـارم، لا على المغانم، وأن يحرصوا على مرضات ربِّهم في جميع أمرهم، وأن تبرأ حياتُهم من النفـاق والرياء والكذب والخيانة، وأن تكون صلاتُهم على أساسٍ من صِدْقِ الإيمان بالله، وحُسْـن الاستجابة لأمره؛ أُسوةً بالأنبياء، واستجابةً لنداء الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾ (١)

عندئذ تنتصر الفضائلُ، وينعم الناسُ بنعمة العدل، وطمأنينة الأمن، وبِرِّ الوفاء، ويفوزون برضى الله ورحمته ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (٢)

حواره عليه السلام مع قومه:

إن مَن يدعو إلى الله يجب أن يعرفَ غايتَه، وأن يؤمنَ بها، وأن يعتصمَ بالصـبر والثبات في تحقيقها، وأن يكون على عِلْمٍ بحالِ مَن يدعوهم؛ لتكون حُجَّتُـه إلـيهم ملائمةً لحالهم، مُصلحةً لشئونهم.

ولنتدبَّر ما كان عليه إبراهيم عليه السلام؛ لنرى كيف عالجَ قضايا قومِه وجادلهم، وكيف كانت حُجَّتُه ناصعةً في بيان ما يدعوهم إليه، أو ينهاهم عنه.

---

(١) التوبة : ٢٣.

(٢) العنكبوت : ٦٩.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١)

سألهم عمَّا يعبدون، فأجابوا قائلين: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ وهو يعلم أنهم يعبدون أصناماً، ولكنه أراد أن يُقروا بما هم عليه؛ ليخاطِبهم بما يجب أن يكونوا عليه.

إنهم - بألسنتهم - يقولون: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وفي ذلك ما فيه من إثباتٍ لضلالهم بقولهم، لا بقول أحدٍ عنهم.

ومن هنا يستطيع إبراهيمُ أن يوجِّه الخطاب إليهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وفي خطاب إبراهيم عليه السلام ما فيه من حثٍّ على التفكُّر والتدبُّر؛ إذ كيف يَعبدُ الإنسانُ ما لا يسمعُ ولا يُبصِرُ، ولا يُغني عنه شيئاً ؟! ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾

فلم يجيبوا بنفي أو إيجاب.. لم يقولوا: « يسمعون » أو « لا يسمعون »؛ لأن الحُجَّةَ تلزمهم في الحالين: إن قالوا: « يسمعون » علموا من أنفسهم أنهم كاذبون، ولا حُجَّةَ لديهم فيما يقولون. وإن قالوا: « لا يسمعون » فقد أقرُّوا أنهم يدعون ما لا يسمع.. وتلك قاضية عليهم، ومُحيطة بهم.

ثم ينتقل إبراهيم عليه السلام إلى مرحلة أُخرى في حوارهم، فيسألهم ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ

(١) الشعراء : ٦٩- ٧٤.

﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ؟ مَن يعبد إلهاً يرجو منه نفعاً، أو يخشى منه ضُراً، والقوم يُسألون عن هذا وذاك فلا يُجيبون بنفي أو إثبات.

وإذا كانت هذه الأصنام التي تعبدون لا يسمعونكم إذ تدعون، ولا ينفعونكم أو يضُرُّون، فكيف تعبدونهم وهذا حالُهم؟!

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

وإذاً هو التقليد لِمَا كان عليه الآباء، دون نظر أو تدبُّر، وهُم بإجابتهم ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يُقرُّون أن لا حُجَّةَ لديهم، ولا علمَ عندهم.

لقد وصل إبراهيم عليه السلام بقومه - وهو يحاورهم - إلى إقرارهم بما يعبدون، وأنهم يُقلِّدون فيما يفعلون.. ومع إقرارهم بهذا، ومع نفي السَّمع عنهم والنفع والضر، يُصرُّون على تقليد الآباء، ويأبون إلا الاقتداء بهم واتباع ما كانوا عليه !

وكم في الدنيا من ناسٍ أضرَّ بهم التقليدُ دون نَظَرٍ أو تدبُّر، مع علمهم بُبُطلان ما هُم عليه، وضلالهم فيما يُقلِّدون ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾ (١)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ ﴾ (٢)

(١) الأحقاف : ٥، ٦.

(٢) الزخرف : ٢٦- ٢٨.

جعل إبراهيم عليه السلام هذه الكلمة - وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وخَلْع ما سواه مِمَّا يُعبد من دونه - جعل كلمة التوحيد،« لا إلـــه إلا الله » دائمـــةً في ذرِّيتـــه، يقتدي به فيها مَن هداه الله.

والبراءة مما سُوى ذلك تصحيحٌ لمسار الإنسانية، وأخْذٌ بيدها من ظلمات الباطل ومتاهات الفساد والضلال.

* * *

إن النفوس إذا آمنت بالباطل، وكفرت بالحق، هانت وخسرت، وهوت في مكان سحيق ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

إن مَن يعبد صنماً يكون أهون منه؛ إذ المعبود - بداهةً - أعزُّ من العابد..

وا عجباً للإنسان حين يدعو ما لا يسمعه، ويرجو ما لا ينفعه، ويفقد كرامتـــه حين يتخذ وليّاً غيرَ ربِّه، ويُدعى إلى ما ينفعه فيُصِرُّ مستكبراً كأنَّ في أُذنيه وقراً !

إن إبراهيم عليه السلام - وهو يرى قومَه عاكفين لأصنامهم، لاصقين بما وجدوا عليه آباءهم - يُعلمهم بأنه عدوٌّ لِمَا يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون؛ ليؤكد لهم أن ما يعبدون من دون الله لا يسمعون، ولا ينفعون، ولا يضرون.. وها آنذا أُعلن عداوتي لهم دون خوفٍ من فواتِ منفعة، أو وقوعِ مضرَّة ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) العنكبوت : من الآية ٥٢.

(٢) الشعراء : ٧٥- ٧٧.

فهو - وحده - الجدير بأن يُخاف ويُخشى، وأن يُعبَد ويُرجى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

وهو - وحده - الذي يستحق العبادة دون سُواه ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

ذاك هو البيان الذي لا التباس فيه ولا تكلُّف.

مَن خَلَق جَديرٌ أن يُعبَدَ، ومَن رَزَقَ جديرٌ أن يُعبَدَ، ومَن لا يخلُق ولا يرزُق لا يُغني عن غيره شيئاً ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٣)

ومن الظُّلم للنفس أن تُؤخَذ إلى الدمار، وأن تُقادَ إلى الخُسران بفعْل صاحبها ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الشعراء : ٧٨- ٨٢.

(٢) العنكبوت : ١٦، ١٧.

(٣) النحل : ٢٠، ٢١.

(٤) يونس : ١٠٦.

أرأيت كيف يُخاطِب إبراهيمُ عليه السلام قومَه في ثِقةٍ وثباتٍ وحكمةٍ ورُشْدٍ، ويُبيِّن لهم أن ما يعبدون من دون الله لا يسمعُ ولا يُبصِرُ، ولا يضُرُّ ولا ينفَعُ.. وهم لا يردُّون شيئاً مِمَّا نُسِبَ إليهم، ولا يُنكرونه، بل يقولون: ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

فيرشدهم - بعد إقرارهم ببطلان ما هُم عليه - ويدعوهم إلى مَن يُحقِّق لهم النَّفْع، ويدفعُ عنهم الضُر، ويسمع دعاءهم، ويطعمهم، ويسقيهم، ويُميتهم، ويحييهم، وتُرجى منه المغفرة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، والخَلْقُ - جميعاً - محتاجون إليه، وعائدون إليه، ومُحاسَبون بين يديه.

ذاك هو ربُّ العالمين الذي دعاهم إبراهيم إلى عبادته، وأقام لهم الحُجَّةَ على ما دعاهم إليه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

ومَن كانت هذه صفاتُه وجب على العبد أن يعبده، ولا يعبدُ غيره، ويرجوه، ولا يرجو سواه ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الشعراء : ٧٨- ٨٢.

(٢) يونس : ٣٢.

(٣) فاطر : من الآية ١٣، الآية ١٤.

ذاك هو منهجُ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، طريقٌ مستقيمٌ، فيه هُدىً ونور، وله حُجَّةٌ وبرهانٌ، فطُوبى لِمَن اقتدى به واهتدى بهُداه ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

* * *

موقفُ قومِ إبراهيم منه:

رأينا - من قبلُ - ما كان من إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وكيف بَرَّ به، وأحسن النُّصْح له، ووعده أن يستغفر له، فلمَّا تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه.

كذلك رأينا ما كان منه مع قومه، وكيف كانت حُجَّته وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.. كل ذلك في آيات تُبيِّن منهجه، وتذكر حُجَّته، وتُظهر ما كان عليه قومه من ظلام التقليد، وإفْكِ الضلال، وفُقدان الحُجَّة والبرهان.

ولنتدبر ما جاء في سورة (الأنبياء) من حوار؛ لنرى كيف تُقام الحُجَّة وتُساق البيِّنـــة.

﴿ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ

(١) الملك : ٢٢.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (١)

في هذه الآيات نرى إبراهيم عليه السلام يضع قومَه أمام أصنامهم وهي مُحطَّمة، وهم يُقبلون عليها يسألون ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ ؟ ولَو فكَّروا ما سألوا، بل زادوا في تكسيرها، وقد بَانَ لهم بُطلانها.. ولكنه العمى والضلال يقُود صاحبَه إلى المكابرة والجُحود ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)

يا الله مَن الظالم ؟

مَن دعا إلى الحقِّ ؟ أم من جحده واتبع الباطل ؟!

(١) الأنبياء : ٥١- ٦٨.

(٢) الأنبياء : ٥٩.

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١)

يذكرهم بماذا ؟ إنه يذكرهم بما فيهم ولا يزيد، ولا يقول إلاَّ الحق في بيان حالها ومآلها، ولكنَّ القوم أَبَوا إلا أن يُحضروا إبراهيم، وأن يسألوه ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ (٢)

فخاطبهم إبراهيمُ بما يوقِظُ عقولَهم، وهم يرون أصنامهم مُلقاةً عند أرجلهم، والصنم الأكبر تُلقَى التُّهمةُ عليه فلا يردها، وتُعلَّقُ الفأس به فلا يأباها، وإبراهيم عليه السلام يحاول إيقاظَ قومه بما فعل، فلا يجد فيهم رُشداً ولا عقلاً، بل يرى أصناماً تهيم في أصنامٍ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣)

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ هكذا يُقرِّرون بأنفسهم، وهذا ما أراده إبراهيم، أن يعودا بالأمر على حقيقته، وأن تستيقظ عقولُهم لسماع ما يُلقَى عليهم، وتدبُّرُ ما يُقال لهم ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٤)

ولكن العقولَ التي أراد إيقاظها جمدت، والنفوسَ التي سعى لهدايتها ضلَّت ﴿ وَلَوْ

(١) الأنبياء : ٦٠.
(٢) الأنبياء : من الآية ٦٢.
(٣) الأنبياء : ٦٣ - ٦٥.
(٤) الأنبياء : ٦٦، ٦٧.

عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

القوم يقولون لنبيِّهم عن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢) ومع هذا يُصرُّون على عبادتها ونُصرتها، ويكيدون لمن جاء لإنقاذهم من ضلالتها ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣)

وأوقد القومُ نارَهم، وبنُوا بُنيانهم، وقالوا قولتهم: ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٤) وما درُوا أن النارَ ستكون ناراً عليهم، وبَرداً وسلاماً على إبراهيم؛ لأن الله الذي خلقها هو الآمرُ لها ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٥)

* * *

(١) الأنفال : ٢٣.
(٢) الأنبياء : من الآية ٦٥.
(٣) الأنبياء : ٦٨.
(٤) الصافات : من الآية ٩٧.
(٥) الأنبياء : ٦٩- ٧٣.

إبراهيم عليه السلام يُلقَى في النار:

إن الأنبياء - صلوات الله عليهم - يُخاطبون أقوامَهم بالحُجَّة والبرهان، ويدعونهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة، ويُبصِّرونهم بما يُحقق لهم الفوزَ والفلاحَ في دُنياهم وأُخراهم.

ولكن الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة يَرَوْنَ في دعوة الأنبياء كَبْحَاً لشهواتهم، ودفعاً لأهوائهم، فيناصبونها العداء، ويصدُّون عن سبيل الله، ويبغُونها عوجاً دون نظر إلى ما هُم مُقبلون عليه، أو قادمون إليه ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣ ﴾ (١)

وقد يرتكب أهلُ الكفر والباطل من الحماقةِ والجُحود ما يدفعهم إلى الإساءة لَمن جاء يُحسنُ إليهم ويرحمهم! قد يدفعهم إلى تدبير القتل، وتبييت الكَيْد، وإنفاذ المكر، وما دَرَوا أن كُلَّ ذلك وَبَالُه عليهم، وأن مكرَهم السيئ لا يحيق إلا بهم، والأمور بعواقبها، ومَن تدبَّر العواقبَ أيقنَ أن الحق لا يُهزَمُ أبداً، وأن الباطلَ زاهقٌ - لا محالة - مهما طغى وتجبَّر.

والقرآن الكريم حينما يحدثنا عن الأنبياء وما جرى معهم إنما يُصوِّرُ بما يجب أن نكونَ عليه من اتِّباع الحق وحُبِّه وإيثاره، ونحن نرى مصائرَ الخَلْق وما ينتهون إليه، فكم دَبَّرَ أهلُ الباطل لدعاةِ الحق من كيدٍ، فرُدَّ كيدُهم، وزهق باطلهم، وانتصر الحقُّ وفاز أهلُه.

نرى ذلك فيما وقع لإبراهيم عليه السلام، وقد دعا قومَه إلى عبادة الله وحده لا

(١) إبراهيم : من الآية ٢، الآية ٣.

شريك له، ونَصَحَ لهم، وحذَّرهم من مغبّةِ ما هم عليه من عبادة ما لا ينفع ولا يضر.. لكن القومَ أبَوا إلا الكُفر والعناد، فأصدروا أمرهم بإحراق إبراهيم؛ انتصاراً لآلهتهم التي صارت جُذاذاً على يديه.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

يا الله !! أيُّ آلهةٍ يروْن نصرَها ؟!

حجارة ينحتونها بأيديهم، ثم يعبدونها ؟!

وتقع هذه السفاهةُ، ويُعتَدى على خليل الله إبراهيم عليه السلام !!

* * *

إبراهيمُ عليه السلام يُعلِنُ توكله على ربِّه:

إن الأنبياء دُعَاة حقٍّ، لا يصرفهم الكيدُ عن التمسك بالحق، ولا يستخفهم الذين لا يوقنون.

إنهم دُعَاة إلى الله، في الشِّدة والرخاء، والعُسر واليُسر.. دُعَاةٌ إليه، لا إلى غيره.. وعليه يتوكلون، لا إلى غيره.

والثبات على الحق دعوةٌ صادقة إليه.. والرسل الكرام هم أشدُّ الناس ثباتاً على الحق، وأقواهم في الصَّدْع به، والدَّعْوَة إليه، لا يصرفهم عنه خَطْبٌ نازل، ولا يُثني عزائمهم ما يُلاقونه من كيدٍ أو صَدٍّ، بل تقوى عزائمُهم بحُسْنِ توكلهم على ربِّهم.

النار يُوقدها الجاحدون لإبراهيم، فيُقابلها - حين يُلقى فيها - بـ « حسبي الله

(١) الأنبياء : ٦٨.

ونِعم الوكيل » فإذا النار نار على مَن أوقدوها، وإذا هي - بقول الله لها - تكون بَرْداً وسلاماً على إبراهيم.

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

روى البخاري في صحيحه عَن ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما - قال: « حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ. قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حينَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ » (٢)

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٣) كانوا بفعلتهم هم الأخسرين، وكانوا بمكرهم هم الأسفلين ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (٤)

والمؤمن الصادق رابِحٌ في جميع الأحوال، رابحٌ في سرَّائه بشُكره، ورابحٌ في ضرَّائه بصَبْره.

ومَن تدبَّر العواقبَ أيقَنَ أنَّ دُعَاة الحق لا يُغلَبون، وأن الحقَّ - الذي يدعون إليه - قد ينتصر وهم يُقتلون.

ولكن الناس - كثيراً - ما تصرفهم الرغائب عن العواقب، وتُلهيهم العاجلةُ عن

---

(١) الأنبياء : ٦٨- ٧٠.

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٣.

(٣) الأنبياء : ٧٠.

(٤) فاطر : من الآية ٤٣.

الآخرة، فيتوهمون النصر فيما يُعجَّل لهم، والخير فيما يُمدُّون به من مال وبنين، ويجهلون - في كثير - أنهم مُمْتَحَنون بالقبض والبسط، والغني والفقر، وأن الخير - كُلَّ الخير - في خشيتهم من ربِّهم، وإيمانهم بآياته، وإخلاصهم في عبادته، ورجائهم في رحمته، وخوفهم من عذابه.

وذاك ما يدعو إليه المرسلون، وما يُرسَلُون من أجله.

وفي ذلك ما فيه من أَمْنِ الناس في دُنياهم، وفوزهم وفلاحهم في أُخراهم.

ومَن طلب أمنَ الناس وسلامتهم بعيداً عن إصلاح النفوس، فقد ضلَّ الطريق؛ فإن النفوس إذا صلحت عملت على إصلاح ما فَسَدَ من أحوالها، وإذا فسدت أفسدت ما صلح من حالها.

والأنبياء قد بُعثوا هداةً للناس إلى طريق مستقيم، ودُعاةً إلى الله ربِّ العالمين، وفي منهجهم إصلاح - أيّ إصلاح - لسلوك الفرد وروابط المجتمع، وفي دعوتهم إعلاءٌ لقيمة الإنسان وهو يعبد ربَّه ولا يُشرك به شيئاً.

في دعوتهم طُهْرٌ للنفوس من البغي والفساد والطغيان؛ حيث لا يتخذ الناس بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله، فالإصرار والثبات على التمسك بهدى الأنبياء إصرار على إقامة الحق والعدل، وإشاعة الخير، والكَف عن الشر، وفي ذلك ما فيه من وفاءٍ للخالق، وبرٍّ بالمخلوق ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) العنكبوت : ٦٩.

حواره عليه السلام مع النمروذ [1]:

إنَّ مَن تدبَّر دعوة الأنبياء وَجَدَ الهدايةَ والتبصرةَ في كُلِّ شأنٍ من شئون الحياة، ونادى بما نادى به الدعاةُ الصادقون ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ [2]

ومن أَبْيَنِ ما تراه في منهج الأنبياء – وهم يدعون إلى الله –: سُلْطَان الحُجَّةِ والبيان.

الحُجَّةُ التي تُغلقُ على الخصم كُلَّ السُّبل، وتفتح أمامه سبيل الحق نيِّراً لا التباس فيه، وتجعل المعاند مبهُوتاً لا يملك ردّاً، ولا يُطيل جَدَلاً، وتتسق مع حال المخاطب وفَهمه، وتبتعد عن الجدل العقيم الذي لا يُراد به سوى المغالبة دون شرفٍ أو غاية.

وأنت ترى خليلَ الله إبراهيم عليه السلام – وقد آتاه الله الحُجَّةَ – يضعها في موضعها، ويخاطب مَن حاجَّهُ بالخطاب الملائم لحاله.

وتدبَّر موقفَه مع مَن حاجَّهُ في ربِّه ترى حُجَّتَهُ قد جاءت ملائمةً لحال هذا الطاغية المتجبر الذي يدَّعي لنفسه ما ليس لها، وينسب لها ما لا يُنسَبُ إلا إلى ربِّ العالمين.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ

---

(١) هو ملك بابل . نمروذ بن كنعان بن كُوش بن سام بن نوح. قال مجاهد : وملك الدنيا – مشارقها ومغاربها – أربعةٌ : مؤمنان وكافران، فالمؤمنان : سليمان بن داود، وذو القرنين. والكافران : نمرود، وبختنصر. تفسير ابن كثير

(٢) يس : من الآية ٢٠، الآية ٢١

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (١)

إن إبراهيم عليه السلام يُنبِّه هذا الطاغية إلى حقيقةٍ ملموسةٍ في ذاته، إنها حقيقة الموت والحياة، وهي جاريةٌ عليه، واقعةٌ فيه كما تقع في غيره، ولكن الكبر والطغيان قد أعماه فلم يستبصر و لم يتذكَّر، بل ادَّعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة؛ معاندة ومكابرة !

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يُبصِّره بنفسه، وأنه مخلوقٌ لخالقٍ، وقد أتى عليه - كغيره من الخَلْق - حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، لكن هذا المغرور نسي خَلْقَه، وأخذ يُجادل في ربِّه.. بل تطاولَ وتمادى في غيِّه، فنسب لنفسه هذه الحقيقة التي لا يملكها إلا الله الذي لا إله إلا هو.

فما كان من إبراهيم عليه السلام - وقد آتاه الله الحُجَّةَ - إلاَّ أن صَفَعَهُ بها، فأسكته وأبطل ادِّعَاءَه.

إذا كُنتَ تُحيي وتميت - كما تدَّعي - فالذي يُحيي ويُميت هو الذي يتصرَّف في الوجود، ويُجريه على سُنَنٍ لا تحيد، فالشمس - وهي آية من آيات الله الذي يحيي ويميت - يأتي بها من المشرق، فإن كنتَ تزعم أنك تُحيي وتُميت، فأتِ بها من المغرب.

﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ (٢)

فأُخرسَ بالحُجَّةِ التي لا مجال فيها للمكابرة والمعاندة ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

---

(١) البقرة : ٢٥٨.

(٢) البقرة : من الآية ٢٥٨.

إن إبراهيمَ عليه السلام - وقد آتاه الله الحُجَّة - يواجه بها أصنافاً من أهل الشرك والضلال، فيُخاطبُ كُلَّ فريقٍ بما يناسب حاله، ويُقوِّم مِعوجَّه، ويُصلح فساده، ويدعوه إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وأدلة الحق قائمة في حياة الناس، في الآفاق وفي أنفسهم، وليست بمعزلٍ عنهم، وما على الناس إلا أن يُحسنوا التدبُّر، وأن يصغوا للعِظة والعِبرة، وهم واجدون في كُلِّ شيءٍ آيةً لله تدل على أنه الواحد.

وبذا تتحقق لهم الخشية، وتستقيم القُدوةُ، وتُقام الحُجَّةُ، ويجدُ الناسُ - في منهج الأنبياء - إيقاظاً لعقولهم، وطمأنينةً لقلوبهم، وهدايةً في كُلِّ شأنٍ من شئونهم، كما يجدون أَمْناً لدنياهم وأخراهم.

وذاك هو المراد من الحُجَّة في منهج الأنبياء.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]

* * *

(١) الأنعام : ٨٠- ٨٢.

ابتلاء الله تعالى لإبراهيم:

إن الأنبياء - صلوات الله عليهم - دُعاةٌ إلى الله بأقوالهم، دُعاة إليه بأعمالهم وأخلاقهم.

وأخلاقُهُم فيها من الثبات والشمول ما يجعلهم أُسوة للخَلْقِ، فالصدق عندهم صدقٌ مع القريب والبعيد، والعدلُ عدلٌ من العدو والصديق، والأمانة مرعيَّةٌ في الشدة والرخاء، وهم - في جميع أحوالهم - يعملون بدافعٍ من مرضاةِ الله، وصِدْق الإخلاص له، وحُسْن التوجه إليه.. وهذا ما تسمو به الأخلاق، وتظفر بالأصالة والشمول والثبات، فلا تتغير بتغير الأحوال، ولا تكون بدوافع الهوى والشهوات..

كم يلقى الأنبياءُ من بلاء « **وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء** »[1]، ولا ترى مع شدة بلائهم، وسفاهة أعدائهم، لا ترى إلا قوةً في عزائمهم، وثباتاً في أخلاقهم، واستجابةً صادقةً لنداء الحق في نفوسهم، وكلما اشتدَّ بلاؤهم كلما ازدادوا ثِقَةً في كشْف الضُر عنهم ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]

ومن هنا يكون الثبات على الحق والتمسك بمكارم الأخلاق.

وها نحن نتدبر منهجَ إبراهيم عليه السلام في الدَّعْوَة إلى الله عز وجل، فنرى من بلائه ما قد وقع في رؤياه، حين رأى في المنام أنه يذبح ابنَهُ - ورؤيا الأنبياء حق - فلم يتوانَ إبراهيمُ في الاستجابة لأمر الحق، وأخبر ابنه بما رأى ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) يونس : ١٠٧.

﴿ ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾[1]

والابنُ يعلم أنَّ ما رآه والدُه هو من أمر الله، وأمرُ الله يجب أن يُطاع، فلم يتوان في حثّ والده على تنفيذ أمر الله فيه، مهما صعب الأمـر عليه أو شـقَّ ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]

هكـذا الأنبياء ترى الصبرَ فيهم خُلُقاً مبعثُه إخلاصُ دينهم لله، وصِدْق معرفتهم له.

هكذا الأنبياء ينصرون الله في أنفسهم، وهم يعلمون أن حياتهم وموتهم لله وحده، لا لأحدٍ سواه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[3]

أبٌ يقول لابنه: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ وابن يجيب والده: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

ألستَ ترى أن أمرَ الله عندهم هو الغالب في نفوسهم، وأن الخضوع له والرضى به سِمَةٌ لا تتخلَّف في جميع أمرهم.

إن مَن يُقدِّم نفسَه أو ابنَه رضىً لربِّه وطاعةً لأمره، سيكون لما سواهما أطـوع وأرضى، ومَن نصر الله في نفسه - بتغليب أمره على هواه - استطاع أن ينصـرَه في جميع شأنه..

---

(١) الصافات : من الآية ١٠٢.

(٢) الصافات : من الآية ١٠٢.

(٣) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

والنفوس حين تُمتَحَن هذا الامتحان، وتُبتلى هذا الابتلاء، ويعلم الله منها صِدْقَ جهادها وصبرها، تكون داعية إلى الله بتقواها وصبرها، لا في جيلها فحسب، بل للأجيال كُلِّها، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وهذا ما كان لإبراهيم من ذِكْرٍ في الأوَّلين، وسلامٍ في الآخرين.

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [1]

* * *

أخي المسلم:

لقد كان إبراهيم عليه السلام - في جميع أحواله - داعياً إلى الحقِّ، مؤمناً به، يصدَع بما أُمِرَ به، في حِلْمٍ ورُشدٍ واحتساب.. نَصَحَ لأبيه وقومِه، ولقي منهم ما لقي، فصبر وصابر، وأُوذي في سبيل الله فما وَهَنَ لما أصابَه، وما ضَعُفَ أو استكان، وما ركن إلى باطلٍ، أو استَخَفَّهُ مَن لا يوقنون، بل صَدَعَ بالحق، ودفع بالتي أحسن، وكان له حُجَّتُه وبرهانه في كُلِّ ما يؤمن به ويدعو إليه، وله منهجُه الذي لا يلتبس بغيره أو يختلط بسواه، وكانت له مواقفه التي تبرهن على صِدْقِ إيمانه، وقوَّةِ حُجَّته، ومكارمِ خُلُقه، وحميد خِصالِه.

---

(١) الصافات: ١٠٣- ١١٢.

فكان - صلوات الله وسلامُه عليه - مَثلاً وأُسوةً لأهل الإيمان في كُـلِّ زمـان ومكان.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) النحل: ١٢٠- ١٢٣.

obeikandl.com

مع نبي الله موسى عليه السلام في دعوته

إنَّ الثقةَ في وَعْدِ الله أَصْلٌ في عقيدةِ المسلم. وهذه الثِّقةُ لها أثرُها البالغُ في سُلوكِ المؤمن وأخلاقِه.

والقرآنُ الكريم - وهو يحدثُنا عن الأنبياء - يُرينا من الآياتِ ما يزدادُ به الإيمانُ ويحقُّ اليقين.

وسنتابِعُ - معًا - حديثَ القرآن الكريم عن نبيِّ الله موسى عليه السلام؛ لنرى نشأتَهُ، ومنهج دعوتِه إلى الله.. وفي ذلك ما فيه من موعظة وذِكْرَى للمؤمنين ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) هود : ١٢٠.

(٢) القصص : ١- ٦.

وعْدٌ من الله، ووعْدُ الله حقٌّ.

فَلْنَرَ كيفَ وقعَ الحقُّ وبَطَلَ كُلُّ تدبير في دفْعِه أو رَدِّه، وكيف حفِظَ الله مَن أراد حِفظَه « **ومَن حَفِظَهُ الله لا يُضيعه الناسُ** »

إنَّ القرآنَ الكريمَ يجعلنا نرى الرَّضيعَ الذي قصده فرعونُ - والذي قَتَلَ من أجله مَنْ قَتَلَ، وهو يظنُّ أنه قد احتاط لنفسه، وحالَ دُون ظُهورِ مَن خَافَهُ على نَفْسِه - يجعلنا نرى الرَّضيعَ وهو يصل إليه، فيتحوَّلُ الذبَّاحونَ إلى خَدَّامين، ويعودُ موسى إلى أُمِّه - في حراستهم - لِتُرْضِعَهُ، وتأخُذَ أجرًا، مُكَرَّمةً بوعْدِ ربِّها، مَحُوطةً بعنايته.(١)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ ﴾(٢)

(١) قال رسول الله ﷺ : « مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجُعل يتقوّون على عدوهم، مثل أم موسى، تُرضع ولدها، وتأخذ أجرها » رواه البيهقي في السنن الكبرى.

(٢) القصص : ٧- ١٣.

هكذا يتحققُ الوعدُ، ويُرَدُّ موسى إلى أُمِّه، ويُسَخَّرُ في ردِّه عدُوُّه !

ومن قبلُ أوحى الله إلى أُمِّ موسى أنْ ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾

ياالله !! مَن ذا الذي يقولُ لأمٍّ تخافُ على ابنِهَا أن يُذبح كما ذُبح غيرُه، مَن ذا الذي يقولُ لها: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ؟!

لا يقولُ ذلك إلاَّ مَن يَخْضَعُ اليمُّ لأمره.

ومَن أيقَنَ بذلك أخلص لله قَصْدَه، وأحسنَ عملَه.

* * *

الثقةُ في وعد الله تعالى:

إنَّ الثِّقَةَ في وَعْدِ الله أَصْلٌ في عقيدة المسلم، لها أَثَرُها في سُلوكه وأعماله، ولها نتائجُها فيما يأخُذُ أو يَدَعُ. والله لا يُخْلِفُ وعْدَه ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

الثقةُ في وَعْدِ الله تُحَقِّقُ من صفات الخير - في دُنيا الناس - ما يحفظُ أَمْنَهَا، ويُقيمُ سَلامَهَا، ولا شيءَ يَبِرُّ بِدُنيا الناسِ كما يَبِرُّ بها سَعْيُ الآخرة التي يُوقِنُ بها المؤمنُ ويُريدُ حرثَها.

الثقةُ في وَعْدِ الله هي التي تنهَضُ بها العزائمُ، وتقوَى الهِمَمُ، وتنشدُ معاليَ الأمور، وتَبْعُدُ عن سفسافِها.

---

(١) الروم : ٦.

الثقةَ في وَعْدِ الله هي التي فتحت أبوابَ التنافسِ على الخير، وجعلت كرامةَ الناس في تقْواهم.. وبها تميَّزتْ صفوفُهم، وتباينت مواقعهم.

فمَن أيْقَنَ بوَعْدِ الله سارعَ إلى الخيرات، ولقد رأينا الصحابةَ الكرامَ والرسولُ ﷺ يحُثُّهُم على الجهاد، ويُحرِّضهم على القتال، وهو يقولُ مستنهضًا الهِمَم: « **قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض** »

وعْدٌ من الله يُلقيه رسولُه ﷺ على أسماعِ أصحابه، فتدفعُ الثقةُ والرجاءُ أحدَ أصحابه [1] أن يقولَ كلمتَه « بَخٍ بَخٍ » [2] ويُلقي بتمرات في يده، يراها مُبَطِّئةً له في النَيْل بما وُعِدَ، ويقول: « **لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ** » [3]

ثقةٌ في الوَعْدِ تدفعُ إلى الجود بالنفس، والصدقِ في القصد، والثباتِ في اللقاء ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾** ﴾ [4]

والقرآنُ الكريم – وهو يهدي للتي هي أقوم – يُرينا من تحقيق وَعْدِ الله في حياة الناس ما يزدادُ به الإيمانُ، وتَطمئن القلوب.

وقد رأينا – من قبل – ما تحقَّقَ لأُمِّ موسى من رجوعِ ابنِهَا إليها مكرَّماً، يخدُمه مَن أرادَ قتلَه، وتُرضعُهُ وتأخذُ أجرًا ﴿ **فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾** ﴾ [5]

---

(١) هو الصحابي الجليل عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه.

(٢) كَلِمَةٌ تُطْلَق لِتَفْخِيمِ الأَمْرِ وَتَعْظِيمه فِي الْخَيْر.

(٣) رواه مسلم.

(٤) العنكبوت : ٦٩.

(٥) القصص : ١٣.

هكذا يتحقَّقُ وَعْدُ الله، ويُرَى ذلك في مشهدٍ تقشَعِرُ منه جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم، ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ الله.

رضيعٌ يُوحَى لأُمِّه ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ (١)، وفي كُلِّ مرحلةٍ من هذه المراحل - بل في كُلِّ خُطوةٍ - خَطَرٌ مُحْدِقٌ، ولكنه وَعْدُ الله الذي يَدِينُ له كُلُّ شيءٍ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

إنَّ الخطرَ يبلغُ ذِروتَهُ حين يصلُ الرضيعُ إلى يدِ القومِ في وقت يُذْبَحُ فيه كُلُّ مَن يُولَدُ.. فيصل موسى إلى الأيدي التي تَذبحُ، أو تأمر بالذَّبْحِ، فتُهيَّأ قلوبٌ لِحُبِّه، وكذلكَ نُفُوسٌ لِحِفْظِه، ويتحوَّلَ قَصْدُ القوم من قَتْلِه إلى خدمته، ويَسْعَوْن لإيجاد مُرضعةٍ تُرضعُه، ويصلُون إلى أُمِّه يَرجونها أن تكونَ هي المرضعةُ، ولها ما تُحبُّ !! والقومُ لا يشعرون أن الله قد أرجَعَهُ إليها، وحرَّم عليه المراضعَ من قبلها، وأنها هي الأمُّ التي أوحى الله إليها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣)

قرآنٌ يُتْلَى على الناس لِيَثِقَ الناسُ في وَعْدِ ربِّهم ويوقنوا، فلا يفرُّون إلا إليه، ولا يتوكلون إلا عليه.

وكم لله من وعدٍ في كتابه يجب أن يُتدبَّرَ وأن تُوقِنَ النفوسُ به؛ لتعملَ بمُقتضاه :

---

(١) طه : من الآية ٣٩.

(٢) الأعراف : من الآية ٥٤.

(٣) القصص : من الآية ٧.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

أخي المسلم: كُنْ على ثِقةٍ بوَعْدِ الله، ولا تركَن إلى من يُنسيك وعْدَهُ، ويُغريك بما سواه، واحْذَر ما يَعِدك به الشيطانُ وما يُسوِّله لك ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ (٤)

---

(١) النور : ٥٥.

(٢) فاطر : ٥- ٧.

(٣) لقمان : ٣٣.

(٤) النساء : من الآية ١١٩، الآيتان ١٢٠، ١٢١.

أخي المسلم: تحقَّقَ وعْدُ الله لأُم موسى، ورُدَّ موسى إليها مُكرَّماً؛ لترضعَهُ وتأخذُ أجرًا ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

والقرآنُ الكريمُ حين يقصُّ علينا ذلك إنما يريدُ لنا أن نَرْكَنَ إلى الله وحدَه، وأن نثقَ في وَعْدِه، وأن نأخُذَ بأسبابِ نَصْرِه، وأن نكونَ على يقينٍ « فمَنْ ينصُرَهُ اللهُ لا يُغْلبُ، ومَن يحفظه لا يُضَيَّع »

« **احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ** » (٢)

هكذا يُطْلَبُ الحِفْظُ، ويُرْجَى النَّصْرُ.

وحديثُ القرآن الكريم عن نشأة موسى عليه السلام يُوحي إليك بأنْ تكونَ حيثُ يُحبُّ الله، لا حيثُ تُحب أنت؛ لأنَّ الله يعلمُ وأنت لا تعلَمُ، واللهُ - وحده - هو القادرُ على أن يَرُدَّ الكَيْدَ، وأن يهزمَ الجمع، وأن يجعلَ مَن يُعِدُّ لك كيداً عَوْنًا لكَ، وأن يُسَخِّرَهُ لخدمتك، وأن يستعملَهُ لنُصرتكَ !

هكذا جعلَ اللهُ آلَ فرعونَ - وهم يكيدون - عَوْنًا لَمَن كادُوا له، وسخَّرهم لخدمته، واستعملَهم في رعايته، وهم لا يشعرون ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ

(١) القصص : ١٣.

(٢) رواه الترمذي.

أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [(١)]

القصةُ تُوحي – لِمَن تدبَّرها – أنَّ الأخطارَ لا تُقَصِّرُ الآجالَ، وأنَّ مَن دَنَتْ مَنِيَّتُهُم يُدرِكهم الموتُ ولو كانوا في بُرُوجٍ مشيدة.

والقصةُ إذ توحي بذلك تجعلُ عزْمَ الإنسانِ مُنعقدًا على الوفاءِ لله وحُسْنِ الاستجابة له، دون خوفٍ من انتقاصِ رِزْقٍ أو أَجَلٍ، « **فلن تموتَ نفسٌ حتى تستوفي رزقها** » [(٢)]، ﴿ **وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا** ﴾ [(٣)]

مَن ذَا الذي يتصوَّرُ أنَّ أُمًّا تخافُ على ابنِهَا – وهو حَضِينُها – تقذفُهُ في التابوتِ، ثم تقذفُهُ في اليمِّ ولا تخاف ؟!

مَنْ ذا الذي يتصوَّرُ أنَّ في ذلك أَمْنًا له ؟!

ومَنْ ذا الذي يستطيعُ أن يربِطَ على قلبِها وهي تفعلُ له وترضى، وهي التي كانت تخشى عليه وهو في حُضنِها ؟!

إنَّ القرآنَ الكريمَ – وهو ينقلُنا من بُعْدِ التَّصوّر إلى الواقع – يُعَلِّمنا أنَّ طمأنينةَ القلوبِ في ذِكْرِ الله لا في أعراض الحياة، فالقلبُ قد يطمئنُ والأخطارُ مُحدِقَةٌ، وقد يفزَعُ والرِّيحُ ساكنة، والله – وحده – هو الذي يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ من عباده، فيُحْفَظ بحفظِه، ويُصنع على عينه.

الله وحده هو الذي يربطُ على القلوبِ فلا تفزَعُ حيث تتوفَّرُ أسبابُ الفزع،

(١) القصص : ٨، ٩.

(٢) رواه ابن ماجة.

(٣) المنافقون : من الآية ١١.

وهو الذي يأمرُ الأشياءَ ويُسخرها في خدمةِ مَن شاء.

اللهُ - وحده - هو الذي يأمرُ الماءَ ليكونَ ذلولاً وموسى على ظهره، ويأمر الريحَ لتكونَ طيبةً؛ حتى يصلَ موسى إلى حيثُ يريدُ الله أن يصِلَ.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

فلْنَعْلَم كيف نُحسنُ التَّوكُلَ على الله ونحن نأخذُ بالأسباب، وليكُنْ لنا في منهج الأنبياء أُسْوة وقُدوة ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٢)

* * *

بداية الصراع بين الحق والباطل:

القرآنُ الكريمُ - وهو يَقُصُّ علينا قَصصَ الأنبياء - يُرينا منهجَهم في واقعٍ عَمَليٍّ، وهم دُعاةٌ إلى الله، فَلْنَرَ كيفَ كانتْ عناية الله بهم ونَصْرُهُ لهُم، وفي ذلكَ ما فيهِ من دعوةٍ إلى الله تقتَرِنُ بالدَّليلِ، وتعتصمُ بالحُجَّةِ.

إنَّ موسى عليه السلام - وهو يدعُو إلى الله - يعلَمُ كيفَ تكونُ عناية الله به وهو يُقْصَدُ ليُقْتَلُ ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣)

ومَنْ يتدبَّرُ حديثَ القرآنِ عنه - في نشأته - يراه تأييداً لدعوته، وحُجَّةً ناصعةً

(١) طه : ٣٧- ٣٩.
(٢) الأنعام : من الآية ٩٠.
(٣) طه : من الآية ٣٩.

لعبادةِ ربِّه، واللهُ الذي حَفِظَهُ ورعَاهُ في صباه هو الله الذي آتاه حُكْماً وعِلماً لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

وتبدأُ رحلةُ الصِّراعِ بين الحقِّ الذي يُؤمنُ به، ويُوقِنُ بتأييد الله له، وبين الذي يَرَى سَطوتَهُ وظُلْمَهُ وإفسادَه لحياةِ الناس من حوله.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ

(١) القصص : ١٣، ١٤.

مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

* * *

يُمكننا – ونحنُ نتدبَّرُ هذه الآيات – أنْ نرى ما فيها من عِبَرٍ وعِظَاتٍ:

إنَّ موسى عليه السلام يعرِفُ ما يُلاقيه قومُهُ من عَنَتٍ واضطهادٍ، وما يُظهِرُهُ فرعونُ وقومُه من ظُلْمٍ وفسادٍ، ولذا كانت استجابتُهُ لِرَجُلٍ من شيعته حين استغاثَهُ على رجلٍ من عدُوِّهِ، وأن يَرُدَّهُ عنه، فوَكَزَهُ و لم يُرِدْ قَتْلَهُ، فكانت القاضيةُ ﴿ **فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ** ﴾ فكان لَمَا وقعَ أثَرُهُ ونتائجُه.

أولاً: في نفسِ موسى؛ إذ نَرَاهُ يُسرِعُ في نَدَمِهِ وطَلَبِ المغفرةِ من ربِّه ﴿ **قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾** ﴾

وفي قوله: ﴿ **إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي** ﴾ فيه ما فيه من صِدْقِ المعرفةِ والفِرارِ إلى الله في طَلَبِ المغفرةِ، وبيانِ أنَّ ما وَقَعَ منه ظلمٌ لنفسِهِ قبلَ أن يكونَ تجاوزًا مع غيره، مع أنَّ موسى عليه السلام لم يُرِدْ قَتْلَهُ، وإنما أرادَ دَفْعَهُ.

ثانياً: لقد كان هذا الحادثُ – وما تَلاهُ – سببًا في هجرةِ موسى عليه السلام وتوجُّهه تلْقاءَ (مَدْيَن).

وفي جميعِ أَمْرِهِ تلْمِسُ حُسْنَ لجُوئِهِ إلى ربِّه وطَلَب الهدايةِ منه.

(١) القصص : ١٥- ٢٢.

- يقول - وقد وَكَزَ رجُلاً من عَدُوِّهِ فقضى عليه -: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾، ويقول: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، والمعنى: لنْ أستعمل قوتي هذه في مؤازرة ظالم أو معاونته.

- ويقولُ - وقد جاءه رجلٌ من أقصى المدينة يخبرُه بتآمُرِ الملأ عليه، وينصحُه بالخروج: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

- ويقول وقد توجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ: ﴿ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهكذا تراهُ - في جميعِ خُطاه - يذكر ربَّهُ، ويطلبُ هدايتَهُ، ويَنْشُدُ رضاه.

* * *

موسى عليه السلام في أرض مدين:

ويمضي موسى عليه السلام إلى أرض (مَدْيَن) خائفاً يترقب، يقطع المسافات الشاسعة غيرَ مزوَّدٍ إلا بالاعتماد على ربِّه وحُسنِ الرجاءِ فيه ﴿ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾، وقد هداه ونجَّاه من القوم الظالمين.

وها هو قد وصل إلى حيث لا تمتدُ إليه يدُ الظالمين ولا تقترب منه بسوء.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

(١) القصص : ٢٣، ٢٤.

مُروءة المؤمن تُلازمه حيثُ كان، وعلى أيِّ حال..

لقد انتهى موسى إلى ماءِ (مَدْيَن) وهو مجهود، ولكنَّ المشهد الذي رآه استنهضه لكي يصنع معروفاً، ويقدِّمَ عونًا لامرأتين تمنعان غَنَمهما عن ورود الماء حتى ينتهي الرعاةُ وهم يوردون أنعامهم لتشرب من الماء.

تقدَّم موسى للمرأتين يسألهما عن أمرهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرف سبب تأخرِهما عن ورود الماء، فهما امرأتان والرعاة رجال، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي، ولا سَنَدَ لهما لكي يتقدما على الرجال، فهما يتعدان ولا يُزاحمان.

تقدَّم موسى عليه السلام - وهو غريب عن القوم - ليضع الأمر في نِصابه، ويسقِيَ للمرأتين أولاً قبل أن يسقي الرعاة ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾

هكذا فعل.. وهو فعل يُنبئ عن أصالة نفس لم تتردد في فعل المعروف وتقدم النجدة، والوقت حَرٌّ وقيظ، وموسى غريب في أرض لا يعرفها، مطارَد من عدوٍّ لَهُ سَطْوةٌ وقوة.. ولكن هذا كلُّه لا يُقْعِدُ موسى عن تلبية داعي المروءة والواجب ولو كان في إعْياءٍ من سفر طويل.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ ليريح جسده المكدود بعد سفر شاق طويل، وبعد مغالبة لأولئك الرعاة الذين يَسقون ولا يقدِّمون مَن يستحق أن يَردَ الماء قبلهم.

إن موسى حين فعل المعروفَ، وقدَّم العونَ لم يطلب أجرًا، وإنما ادَّخر ما فعل عند ربِّه، ودعاه أن يأخذ بيده وهو في هاجرةٍ وقيظ ووحشة وحاجة.

دعاه وهو يأخذُ بأسباب طاعته ورضاه، وأيّ شيء أرضى لله من صنائع المعـــروف وعون العبد لأخيه ؟ « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »(١)

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فقيرٌ إلى الله وحده، لا إلى الناس، فقيرٌ إلى فضله وكرمه، فقير إلى رعايته وحفظه.

ولا يكاد موسى ينتهي من مناجاة ربِّه حتى نرى الفرج يقترب منه، والاستجابةَ من ربِّه تحقق له الأمنَ والطمأنينةَ والإيواء ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(٢)

حقّق الله له الأمنَ بعد خوف ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ وصَلْتَ إلى دار لا سُلطان للظالمين عليها.

ومع الأمن وَجَدَ موسى السَّكنَ والراحة، أُناس يقدِّرون صُنعه، ويدركون فضله، ويعرفون أمانته.

وهكذا يجعل الله للتَّقي فرجاً ومخرجاً، ويجعل له من أمره يُسرًا، ولا شيء أبرَّ بالإنْسان من حُسن تقواه وتوكله على الله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾(٣)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) القصص : ٢٥.

(٣) الطلاق : من الآية ٢، الآية ٣.

لقد عرض الشيخُ الكبير على موسى - وقد عرف أمانته - أن يزوجه إحدى ابنتيه.. عرضَ عليه ما عرض - من بِنَاء أُسرةٍ وإقامة بيت - في غير تحرُّج أو التواء، وهكذا يفعل الشرفاء.

ويعرض الشيخُ الأمرَ على موسى في أدبٍ وصدق، وهو يَصر ألا يشقَّ عليه في العمل، ويرجو أن يجده موسى - بمشيئة الله - من الصالحين.

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾ (١)

أدبٌ رفيع وخُلق أصيل، فالشيخ لا يزكّي نفسه في الوعد بحُسنِ معاملته، ولا يجزم أنّه سيكون من الصالحين، ولكنه يرجو من الله أن يكون كما أراد، ويركن إلى مشيئة الله، ويكل الأمر إليه.

وتمّ الأمرُ في يُسْرٍ، وقَبِلَ موسى العَرْضَ، وأمضى العقد ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾ (٢)

هكذا يكون اليُسر، ويكون الوضوحُ في الغاية.

وأنت ترى أن ذكرَ الله لا يبارح العرض والقبول ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾

(١) القصص : ٢٧.

(٢) القصص : ٢٨.

ويقضي موسى أطيبَ الأجلين وأكثرهما، ويُتم العشرَ [1] باختياره لا بعُـدوان الشيخ عليه.. وهكذا الشرفاء حين يعملون، والكرماء حين يُوفُّون، تراهم يُخلصـون ويحسنون، ويؤدون عملهم في إتقان وإتمام، وأمانة وصدق.

* * *

موسى عليه السلام يتوجَّهُ إلى فرعون :

وتمضي السنوات العشر، ويسير موسى بأهله إلى حيث أراد الله أن يكون.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ

---

(١) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : « سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ : أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ قُلْتُ : لا أَدْرِي حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلَهُ، فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ : قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ » رواه البخاري.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

عاد موسى عليه السلام وقد أُمِرَ بالتبليغ إلى فرعون كما أمره الله ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢) غير أنه لم يَعُد - كما خَرَجَ من قبل - خائفاً يترقب،وإنما عاد ليبلِّغ رسالةَ الله في ثِقة، ويواجه فرعون ويدعوه إلى عبادة ربِّه، ويحذِّره من التمادي في الكُفر والطغيان.

عاد ليُعْلنَ رسالة الله ويبصِّرَ بالعواقب والنتائج، عاد برسالةٍ بيِّنة ومنهجٍ واضح..

عاد وقد اختاره الله وأوحى إليه بما أوحى لرسله وأنبيائه.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣)

ذاك هو مجملُ الرسالة التي بُعث بها موسى عليه السلام ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) القصص : ٢٩- ٣٥.

(٢) طه : ٢٤.

(٣) طه : ٩- ١٦.

وهذا ما أرسل الله به الرسل جميعاً، فهم دُعَاة إلى دين واحد شرَعه الله لهم ووصَّاهم أن يُقيموه ولا يتفرَقوا فيه.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ (٢)

* * *

موسى عليه السلام يسألُ ربَّه المعونة :

ذهب موسى عليه السلام كما أمره الله، وهو يعلم أنه ذاهب إلى طاغية مُستبد يقول للملأ من حولِه - في غير حياءٍ -: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ (٣)

ومعه الآياتُ الدالة على صِدق ما يدعو إليه (٤) يطلب موسى من ربه المعونة والتأييد

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا

(١) الأنبياء : ٢٥.

(٢) الشورى : من الآية ١٣.

(٣) القصص : من الآية ٣٨.

(٤) أيَّد الله موسى بتسع آيات، هي : العصا، واليد، والقحط، والنقص، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم [راجع : الإسراء : ١٠١، القصص : الآيتين ٣١، ٣٢، الأعراف : الآيتين ١٣٠، ١٣٣]

بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1]

لقد طلب موسى من ربِّه ما طلب ليكونَ عونًا له في ذِكرِه والتسبيح بحمـــده ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ فأُجيبت دعوته، وآتاه الله ما سأل ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

واقتضى المقام أنْ يُذَكِّرَه ربُّه بِمِنَّته عليه وهو رضيع، والخطر من حوله أقوى وأشد، والملأ يأتمرون به ليقتلوه.

وفي التذكير ما فيه من ثباتٍ وطمأنينة ويقين، وفي نزول القرآن به وحفظِه تذكرة وتبصرة وموعظة للمؤمنين.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [2]

لا تخافا إنني معكما:

ومع أن موسى عليه السلام وأخوه هارون سيقومان بما أُمرا به، من القول اللّين في

(١) طه : ٢٥- ٣٦.

(٢) طه : ٣٧- ٤٤.

مخاطبة فرعون، إلا أن موسى يحتاط في تبليغ دعوته، فيطلب المزيد من التأييد وهو يذهب ومعه أخوه هارون إلى طاغية مستبد ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ (١)

لقد احتاطا مِنْ طغيان فرعون بوعدٍ من ربِّهما، وأَنْعِمْ به من وَعْدٍ ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ ﴾ فلم يعد هناك خوفٌ من أن يفرُط عليهما فرعونُ أو أن يطغى ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾

اللهُ أكبر. إن فطنة الأنبياء تعِي ما قِيل. وما قيل يحمل من حقائق الإيمان ما تخشع له القلوبُ، وتطمئن به النفوس، وتثبت في مواطن البأس ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ ومَن كان الله معه لا يَذِل ولا يخزى، ومَن حفظه اللهُ لا يضيِّعه الناس.

إنها الكلمة قالها الرسول ﷺ لصاحبه وهما في الغار تحيط بهما قوى البغي والتسلط، ولو نظر أحدُهم تحت قدمه لرآهُما.

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ (٢)

كلمةٌ قالها الرسول ﷺ لصاحبه أبي بكر ﷺ، والصديق يعي دَلالتها، ويُدرك ما تحمله من الرعاية والتأييد ودَفعِ المكرِ والكيد.

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

(١) طه : ٤٥، ٤٦.

(٢) التوبة : من الآية ٤٠.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وقد قالها موسى عليه السلام لما تراءى الجمعان، وقال أصحابُ موسى: (إنا لمدركون) حين رأوا البحر أمامهم والعدوَّ قد لحق بهم مِنْ خَلْفِهم، ولا سبيل لإنقاذٍ، ولا طاقة لهم في دفع طغيانٍ وكيد.. وقد تبعهم هذا العدو ليستأصل جمعهم.

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

قولٌ قاله النبي ﷺ وهو يعلم ما يعنيه هذا القولُ. وهو - ومَن معه - لا يملكون سبباً للنجاة مما يركن إليه الناس أو يأخذون به، ولكنَّه يُوقِنُ أنَّ القوةَ لله جَميعاً، فما يكون فرعونُ ومَن معه ؟ وما يملكون أو يصنعون ؟

إن موسى عليه السلام يقول في ثقة ويقين ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

﴿ إِن مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ بهذا التأكيد الجازم القاطع، وبلا تمهل ينفِّذ موسى عليه السلام ما أُوحي إليه من ربِّه ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ ﴾ (٣)، وماذا تفعل عصا موسى للبحر إن ضربت به ؟ إن الآمر هو الله، فلينفذْ أمرُه وليُطِع في الأخذ بالأسباب، ولكن الأسباب وحدها لا تُحقق شفاءً، ولا تقدم عطاء ما لم يأذن الله.

لقد قالها موسى: ﴿ إِن مَعِىَ رَبِّى ﴾ والبحر والبَرُّ والسماء والأرض، وكل شيء

(١) التوبة : من الآية ٤٠.
(٢) الشعراء : ٦١، ٦٢.
(٣) الشعراء : من الآية ٦٣.

خاضعٌ لله مؤتَمِرٌ بأمره، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [1]

فليمضي موسى وأخوه وليذهبا إلى فرعون في معيَّة الله، وليبلغا رسالة الله، وفي ذلك عظةٌ وعبرة لكل داع إلى الله، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [2]

* * *

حقائق ينبغي ألاَّ تغيب:

لقد أمر الله موسى وهارون - عليهما السلام - أن يذهبا إلى فرعون ليُبلِّغا رسالةَ الله في غير خوفٍ أو خشيةٍ أن يفرُطَ عليهما فرعونُ أو أن يطغى.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3]

والمتدبر في هذه الآيات يقفُ على حقَائق لا بُدَّ منها في الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى، منها:

١- حُسْنُ الصِّلة بالله، وصِدقُ الاعتمادِ عليه والإخلاص له:

---

(١) الأعراف : من الآية ٥٤.

(٢) النور : ٥٢.

(٣) طه :٤٢-٤٦.

وذاك يستلزمُ مداومة ذِكره والتسبيح بحمـــده ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾[1] أي لا تَضْعُفا. والمراد أنهما لا يفتُران في ذِكر الله، بـــل يذكران الله في حال مواجهةِ فرعون؛ ليكون ذِكرُ الله عَوناً لهما عليه، وقـــوةً لهمـــا، وسُلطاناً كاسراً.

وهذا ما يجب أن يكونَ عليه المؤمن، أن يُكثِرَ من ذِكْر ربِّه؛ فإن ذلك طمأنينـــةً لقلبه، وسداداً في قوله، وتوفيقاً في عمله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]

٢- لزُوم الحِكمةِ في تبليغ الدَّعْوَة:

ومما يُعين الداعيةَ على تبليغ دعوته أن يُدركَ أن هدايةَ الناس ليست بيده، وإنمـــا هي بتوفيق الله وحده، وما على الدُّعاةِ إلاَّ أن يُبلِّغوا رسالةَ الله في صِـــدْقٍ وحِكمـــةٍ ورُشدٍ، كما أمر الله تعالى وبيَّن رسولُه ﷺ.

عليهم أن يُخاطبوا الناس بالملاطفة واللِّين ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]

والقولَ اللِّين من قويٍّ دلالةَ قوته. فما بالك والآمر هو الله ؟ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[4]

---

(١) طه : ٤٢.

(٢) الرعد : ٢٨.

(٣) طه : ٤٣، ٤٤.

(٤) فاطر : من الآية ٤٤.

والله يعلم أن فرعون لن يتذكرَ ولن يخشى، ولكنه الأمر بما يجب أن يكون عليه الداعي إلى الله من حُسن القول، والدَّعْوَة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال الله ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1]

ومَن تدبَّر منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله - كما جاء في كتاب الله - عرف كيف يكون القولُ اللَّين، وعلم كيف تكونُ الحكمة في مخاطبةِ مَن يدعوه ويرشده إلى ما يجب أن يكون.

ونحن نتدبَّرُ منهجَ موسى عليه السلام في الدَّعْوَة إلى الله سنرى كيف كان الحوارُ بينه وبين فرعون، وأن القولَ اللَّين الذي أُمر به قَوِيٌّ في دلالته، بليغٌ في موعظته، حقٌ كلُّه، لا يقترب الباطلُ من ساحته.

القول اللَّين - كما أمر الله - لا يستطيعُ أعدى الأعداء أن يجد مجالاً لإنكاره، أو سبيلاً لإبطاله؛ لأنه ذو حُجَّةٍ وسُلطان، ونورٍ وبرهان.

القول اللَّين - كما أمر الله - لا تستَخِفُّه سفاهةُ السفهاء، ولا تميلُ به عداوتُهم عن الخُلق القويم، والحكمة الراشدة، ولا تُبعده عن الهدف والغاية.

* * *

(١) النحل : من الآية ١٢٥ .

بين موسى عليه السلام وفرعون:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ ﴾ (١)

(١) الشعراء: ١٠- ٣٣.

أخي المسلم: إن الدَّعْوَةَ إلى الله ذات منهج مُحدَّد، فالله لا يُدْعَى إليه إلاَّ بما أَمَرَ وشَرَعَ، وهو أعلم بِمَن خَلَقَ ﴿ وَلَو شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ (١)

والناسُ منهم كافرٌ ومنهم مؤمن، وفيهم تَقِيٌّ وفيهم فاجرٌ.

والدعاةُ إلى الله قد يُلاقُون من أهل الكُفر والفسوق والعصيان ما يُلاقون، ولكنهم - في جميع الأحوال - مطالَبون بالوقوفِ عند المعالم التي حُدِّدت لهم، والأخذِ بالأسباب التي شُرِعَت، ولا يحملهم الحرصُ على هداية الناس أن يتجاوزا الضوابطَ والحدود، ولا يدفعهم ما يُلاقونه من صدٍّ أو كيدٍ أن يركنوا إلى ظالمٍ، أو يُستَخفُّوا من مستبِّد فاجر.

عليهم - في جميع الأحوال - أن يُحسِنوا التوكل على الله، وأن يفرُّوا إليه وحده، وأن يكونوا مع الصادقين؛ فإن التوكل على الله قوةٌ، والركونَ إلى أهواء الناس ضَعْفٌ وذِلَّة ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٢)

وقد قلتُ من قبل: إن القولَ اللَّين - كما أمر الله - لا تستخفُّه سفاهةُ السفهاء، ولا تميلُ به عداوتُهم عن الخُلق القويم، والحكمة الراشدة، ولا تُبعدُه عن الهدف والغاية.

وتدبَّرْ ما قاله فرعونُ، وما أجاب به موسى عليه السلام، ترى فرعونَ يُسيئ في قوله، ويبالغُ في إساءته.. يقول لَمَن حوله - تارةً -: ﴿ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾ (٣) ؟، وهو يقصدُ

(١) الأنعام : ٣٥.

(٢) البقرة : ١٢٠.

(٣) الشعراء : من الآية ٢٥.

التنديدَ بموسى، واستنفار الملأ لعداوته.. ومرةً يقول: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾، ويُهدِّدُ موسى ويتوعَّده قائلاً: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1]، وموسى - مع ذلك كلِّه - يستمسك بالقول اللَّين الذي لا يُعارَض ولا يُنكَر.. يستمسك بالحقِّ الذي لا يقتربُ من ساحته باطلٌ، ويُدلي بالحُجَّة التي لا تُقاوَم، ويأتي بالبيان الذي يُحقُّ به الحقَّ، ويبطلُ الباطل، في اتزانٍ وثبات.. وفرعونُ يُهدِّدُ ويتوعَّدُ، ويقذفُ بالكلمات الطائشة، وموسى عليه السلام لا يحيد عن الحق، ولا ينطقُ إلا بالصدق.

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2]

تلك إجابة موسى تراها صادقةً مُشرقةً هاديةً.. فماذا قال فرعون؟

﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [3] استخفافٌ، وطيشٌ، واستهزاءٌ، فلا ترى موسى عليه السلام يُشغَلُ به، بل يمضي في دعوته راشداً محتسباً ﴿ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [4]، ويتمادى فرعونُ في عُتوِّه، ويبالغُ في إساءته ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [5] وموسى عليه السلام يستمسكُ بما أُوحي إليه، ولا يُشغَلُ بما سمع من سِبابٍ وشتمٍ.. بل يقول كلمةَ الحق في ثباتٍ ورُشد، وحُسنِ

(١) الشعراء : ٢٩.
(٢) الشعراء : ٢٣، ٢٤.
(٣) الشعراء : ٢٥.
(٤) الشعراء : ٢٦.
(٥) الشعراء : ٢٧.

خُلق ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] لا يُجاري فرعونَ في سفاهته، بل يُريه - بالحُجَّة والبرهان - أين يكون العقل، وأين يكون الجنون.. وهو ماضٍ في غايته يهديه إلى ربِّه، ويدعوه إلى عبادته ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ومن لم يعترف بذلك ويُوقِنْ به، فلا عَقل له.

هكذا في كلمات نَيِّرَةٍ مُشرقةٍ هاديةٍ يُثبتُ موسى الربوبية لله، وفي إثباتها - على النحو الذي ذَكره - دعوةٌ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أدرك فرعونُ ذلك، فهدَّد وتوعَّد؛ يريدُ أن يُثنيَ موسى عن الحقِّ، ويُبعده عن الرُّشد ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [2]

وتلك وربِّي دلالةُ هزيمة وضعف.. أن تُقابَلَ الحُجَّةُ بالسجن، وأن يُردَّ العلم بالسفاهة والجهل!

ومع هذا نرى موسى عليه السلام يستمرُ راشداً في دعوته، لَيِّناً في قوله.. لا لكي يرفع السجن عن نفسه، بل لكي يبلِّغ رسالةَ ربِّه ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [3]

ويأت موسى بآيات ربِّه، ويزدادُ فرعونُ تكذيباً وعصياناً، وعتواً وطُغياناً.. وموسى عليه السلام - في جميع الأحوال - يستمسكُ بمنهج الله، وهو يأخذُ بالأسباب،

---

(١) الشعراء : ٢٨.

(٢) الشعراء ٢٩.

(٣) الشعراء : ٣٠، ٣١.

ويدعو إلى الله، لا يُبارِحُ خُلُقاً أُمِرَ به، ولا يميلُ عن الطريق الذي حُدِّدَ له..

وهذا ما يجبُ أن يكونَ عليه الدُّعَاةُ إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

موسى عليه السلام يستشهدُ بآيات الله :

إن آيات الله في الأنفسِ والآفاق تُعين الدَّاعِي إلى الله تعالى على تبليغ دعوته، وإرشاد الناس إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم.

ومع كتاب الله عز وجل ونحن نتدبَّرُ منهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله؛ لنرى كيف تكون آيات الله - في الأنفس والآفاق - عَوناً لهم، وبُرهَاناً على صِدق دعوتهم.

ومع هذه الآيات من سورة طه؛ لنرى كيف خاطب موسى عليه السلام فرعونَ وقومه بآيات الله في خَلْقِه، ودعى إلى عبادته وحده لا شريك له.

لقد بلَّغ موسى وهارون - عليهما السلام - رسالةَ الله كما أمرهما، وقالا لفرعون ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، وكأنَّ الدَّعِيَّ المستكبر قد رأى أن موسى وهارون يُجردانه من ادعائه الربوبية، فسألهما قائلاً: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ ؟ مَنْ ربكما الذي تدَّعيَان أنه أرسلكما ؟

وهو سؤالٌ يوحي بإنكاره ربوبية الله تعالى ربِّ العالمين.

﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ويأبى أن يقولَ (ربي) كما بلَّغاه ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، فجاء جواب موسى مُقرِّراً لحقيقة تكشفُ ما عليه فرعون من كَذِبٍ وبُهتان ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [1]

ومَن أعطى كُلَّ شيء خَلْقَهُ هو - وحده - الذي يستحقُّ أن يُعبَدَ دُون سواه.

---

(١) طه : ٥٠.

وهذه الحقيقة - وحدها - كافيةٌ في تحقيق المعرفة، معرفة الخالق وخشية، وإدراك ما لَهُ من قُدرةٍ وعلم.. ولكن القُلُوبَ حين تعمى تُجادلُ بالباطل، وتكرهُ الحقَّ، وتضلُّ السبيل.

وآيات الله - في الآفات وفي الأنفس - قريبةُ الدلالة، بيِّنةٌ واضحةٌ، تدلُّ على الخالق، وتدعو إليه.. ولكن الجُحود يُعمي البصائر فلا ترى ما يُرَى، ولا تسمعُ ما يُسمَعُ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ (١)

من ذا الذي يجادل في أَمْر الخَلق وإسناده لله وحده، وهو يعلم بدايةَ خَلْقه، وأنه لم يكن شيئاً مذكوراً ؟!

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ ﴾ (٢)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ ﴾ (٣)

يُقَرِّر موسى عليه السلام هذه الحقيقةَ في يُسْرٍ ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ (٤) فمَن الذي يفعلُ ذلك من دون الله ؟ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ (٥)

حقيقةٌ كافيةٌ في تبصرة الإنسان وهدايته إلى ما يجبُ أن يكون عليه من صِدق العبادة

(١) الأنفال : من الآية ٢٣.
(٢) الطور : ٣٥، ٣٦ .
(٣) النحل : ١٧.
(٤) طه : من الآية ٥٠.
(٥) الحج : من الآية ٧٣.

لله، وإخلاص القَصد له، وحُسن التوكل عليه.. فكلُّ شيء له ولا شيء لأحدٍ سواه.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

وعندما قرَّر موسى بأنَّ ربَّه الذي أرسله هو الذي خلقه ورزقه، وقدَّر فهدى - فهو الذي يستحقُّ العبادة دون سواه - شرع فرعونُ يحتجُّ بالقُرون الأولى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢) أي: إذا كان الأمر كذلك، فما بَال القرون الأولى لم يعبدوا ربَّك، بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى - في جواب ذلك -: هُم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مَضْبُوطٌ عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتابٍ ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) أي لا يشذُّ عنه شيء، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسى شيئاً.. يصف الله تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً - تبارك وتعالى

(١) المؤمنون:٨٤ -٩٢ .

(٢) طه:٥١.

(٣) طه : من الآية ٥٢.

وتقدَّس وتنـــزَّه - فإنَّ علمَ المخلوق يعتريه نَقْصَانَان: أحدهما عدمُ الإحاطة بالشئ، والآخر نسيانه بعد علمه.. والله مُنـــزَّه عن ذلك.(١)

أخي المسلم: وعندما يُقرِّر موسى عليه السلام هذا الأصلَ، ويذْكُرُ من صفات ربِّه ما يدلُّ على الإحاطة بشئون خَلْقه، يتّخذْ من آيات الله - في السموات والأرض - دليلاً على ما قرَّره ودعى إليه.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾(٢)

أيُّ شيء من ذلك لا يراه الإنسانُ ولا ينتفع به، وهو من الأرض خُلِقَ، وإليها يعود، ومنها يُبعثُ مرَّة أخرى؟!

﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥ ﴾(٣)

إن هداية الإنسان إلى الحق تُلازمُه، ولا تنفَكُّ عنه؛ ليُصلح ولا يُفسد، ويُحسـنَ ولا يُسـيء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) طه : ٤٩- ٥٤.
(٣) طه : ٥٥.

﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥ ﴾ (١)

والأرضُ - وقد جُعلت مَهداً للإنسان، وذلولاً لخدمته - جعل الله فيها آياتٍ تُخاطبه؛ لكي يؤمنَ بربِّه ولا يجحد، ويشكر ولا يكفر.. تُخاطبه ليعرف قُدرةَ الله على بَعثِه وجزائه، وهو يرى قُدرته في خَلقه وفي الأشياء من حوله.

وفي المنظور المشاهَد من آيات الله ما يدلُّ على قُدرته فيما خاطب الإنسان به من أمر الغيب من: بَعثٍ، ونشورٍ، وحسابٍ، وجزاءٍ، وجنةٍ أو نار.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ ﴾ (٢)

الأرضُ جعلها الله للإنسان مَهداً، وجعل فيها آيات يُخاطَبُ بها الإنسانُ ليعبدَ ربَّه، ولا يشركَ به شيئاً ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾ (٣)

إن الأشياء قد خلقها الله لغايةٍ، خلقها لتبصرة الإنسان وتذكرته لعبادة ربِّه، فهو

---

(١) غافر : ٦٤، ٦٥.

(٢) فصلت : ٣٩، ٤٠.

(٣) النمل : ٦١.

وحده الذي يستحقُّ العبادةَ دون سواه ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ومن فاتَه العلمُ بذلك، وقع في الجهالة والكُفر، مع أن آيات الله - في نفسه وفي الآفاق - تُخاطبه أبلغ خطاب، وتُذكّرة بلا انقطاع أن يُحسنَ الاستجابة لله فيما دعاه إليه.

وكفـــاه أن يرى ما في الأرض من آيات يستبصرُ بها كما يستبصرُ بما في نفســـه ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

مَن ذا الذي يُمسكُ الأرضَ لتكون ذَلولاً للإنسان، ومهداً له ؟!

وهل يأمن الإنسانُ أن تُؤمَرَ الأرضُ - وهي خاضعةٌ لربِّها - فتأخذ الإنْسانَ في جوفها كما حملته على ظهرها ؟! ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

إن الذي جعلها مَهْداً هو الخالقُ لها، وهو الآمرُ لها أن تقـــرَّ أو تَمُـــور، وهـــو الممسكُ لها أن تزول، وهو الذي يُنـــزِلُ عليها من السماء ماءً فتهتـــزُّ وتربو، وتُنبِتُ من كل زوجٍ بهيج.

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣)

وإذا كان في الأرض - وفيما أنزل الله من السماء - متاع للإنسان والأنعام،

---

(١) الذرايات : ٢٠، ٢١.

(٢) الملك : ١٦.

(٣) النمل : ٦٠.

فإن هذه آيات للتبصرة والذكرى ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١)

فطُوبى لِمَن استبصر وتذكَّر، وويلٌ لِمَن جحد وكَفَر ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢)

* * *

إيمانُ السَّحرةِ بربِّ العالمين :

إن الأنبياء جميعاً دُعاةٌ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ (٣)

ومن أنعَمَ الله عليهم هُم الذين يتبعون هذا الصراط، ومَن حاد عنه - أو اتبع غيره - هَلَك وضلَّ، وَتَوَزَّعَتْهُ السُّبُلُ، وقادته الشياطين ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٤)

والدَّعْوَة إلى الصراط المستقيم - في منهج الأنبياء - تتسم بالاستقامة في كل شيء، في كلمة الداعي، وسلوكه، ومعاملته، فلا ينطق بفُحش، ولا يُقابل السيئةَ بالسيئة، بل يدافع - دائماً - بالتي هي أحسن وإن أساء النَّاسُ، أوْ جَهلُوا، أو أعرضوا،

---

(١) طه : ٥٤.

(٢) الحديد : من الآية ٢٠.

(٣) الشورى : من الآية ٥٣.

(٤) الأنعام : ١٥٣.

ولا شيء كصِدْق الإيمان في تحديد سلوك الإنسان، وعِفَّةِ نفسه وشرفه، وسمو أخلاقه وحُسن معاملته.

والأنبياء - وهم يدعون الناسَ إلى عبادة الله وعدم الإشراك به - يقودونهم إلى الإصلاح في جميع شئون الحياة، والتمسك بمكارم الأخلاق.

وترى الفارقَ بين سلوك الإنسان وهو بعيدٌ عن ساحة الإيمان، وسلوكه وهو يعتصمُ بصِدق الإيمان.. ترى الفارقَ بين قوله وعمله ومعاملته لغيره، كما ترى الفارقَ بين النور والظلمات.

والمتبعون منهجَ الأنبياء في الدَّعْوَةِ إلى الله يقتدون بهم ويهتدون بهداهم، وانظر إلى حال الناس عندما يتحوَّلون من الكُفر إلى الإيمان، ومِنَ أتباع الباطل إلى اتباع الحق من ربِّهم.

ما الذي كان يشغل السحرةَ عندما جمعهم فرعونُ ؟ وماذا كانوا يطلبون ؟

كان يشغلهم أن يكونوا هم الغالبين، وأن ينالُوا من فرعون أجراً، وأن يكونوا عنده من المقرَّبين.

ظلماتٌ يُساند بعضُها بعضاً، يُبددها - جميعاً - شعاعٌ من نور.. وباطلٌ يُسانِدُ باطلاً، لا يلبثُ - حين يجيء الحقُّ - أن يَزْهقَ وأن يزول.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

هذا ما كان يشغل السحرةَ، وما تعلَّقت به نفوسُهم، وقد أحضرهم فرعونُ

(١) الشعراء : ٤١- ٤٤.

لِيدحضَ بهم الحق، ويردَّ ما جاء به موسى! وقد أغراهم بأجرٍ وقُرْبٍ منه، بعد أن جمعهم وحشر الناسَ ليشهدوا نصرَهم.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وفي هذا الجمع الحاشِدِ والزَّهوِ المُفْرِط وقع ما أَذِنَ الله أن يقع، فإذ بالسحرة يؤمنون وقد رأَوا الحق وأبصروا دلائله.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٨﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٩﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢)

تَحوُّلٌ عجيب من حال إلى حال عندما استنارَ القلبُ بنور الإيمان.

وترى السحرةَ الذين جاءوا في أوَّل أمرهم يطلبون الأجرَ، وينشُدون القُربَ من ظالم مستبد، تراهم - وقد آمنوا - لا يهابُون تهديد فرعون ووعيدَه، وترى النورَ في كلماتهم، والاستقامةَ في أقوالهم، وتراهم ينشُدون ما عند ربِّهم، ويرجونَ عفْوَه ومغفرته.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ

(١) الشعراء : ٣٨- ٤٠

(٢) الأعراف : ١١٧- ١٢٢

أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: هكذا ترى الفارقَ البعيدَ بين سُلوك الإنسان وهو بعيدٌ عن ساحة الإيمان، وسلوكه وهو يعتصمُ بصِدق الإيمان. ترى الفارقَ بين قوله وعمله، ومعاملته لغيره، كما ترى الفارقَ بين النور والظلمات.

وتدبَّر ما قاله السحرةُ قبل إيمانهم، وما فعلوه بعد أن حبَّبَ الله إليهم الإيمانَ، وزَيَّنهُ في قلوبهم. لقد أبصروا الحقائق، وأدركوا العواقبَ، وصَدَقوا فيما اختاروا لأنفسهم، وخافوا مقام ربِّهم، و لم يُفلحْ تهديدُ فرعون في ردِّهم إلى الكُفر بعد إيمانهم.

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)

* * *

فرعونُ يتوعدُ السَّحرةَ ويتهددهم:

في منهج الأنبياء اتساق فطري بين الدنيا والآخرة؛ فالإنسانُ في دُنياه يعملُ لآخرته، وفي الآخرة يُجازَى على عمل دُنياه ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ ﴾ (٣)

(١) الشعراء : ٤٩- ٥١.

(٢) طه : ٧٢، ٧٣.

(٣) الكهف : من الآية ٤٩.

وقد تَشْغَلُ النَّاسَ رغبةٌ عاجلةٌ عمَّا يكونُ في العاقبة، فيُشغلون بالباطل عن الحقّ، ويُحبون العاجلةَ، ويَذَرون الآخرة، وقد يدفعهم ذلك إلى جُحودِ الحق ونُكرانه، ويقُودهم إلى الاستخفاف بشأنه، والإساءة إلى أهله.

وكذلك فعل فرعونُ وقومُه لمَّا جاءهم موسى بالحق من ربِّهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١)

ولما رأوا بأعينهم أن الحقَّ يُبطل السحرَ بحُجَّته وسُلطانه، اتجهوا إلى الدَّاعين إليه والمؤمنين به، يتوعدونهم بقَتْل أبنائهم، أو استحياء نسائهم، كما توعَّد فرعونُ السحرةَ بقوله: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

ولكنَّ السحرةَ - وقد عرفوا الحق، وآمنوا بربِّهم - لم يصرفهم وعيدُ فرعون عن الاستمساك بالحق الذي عرفوه وآمنوا به، وردُّوا عليه أبلغ ردٍّ، بالكلمة الراشدة، والثبات على الحق: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٣)

لقد اهتدى السحرةُ بهَدي الأنبياء، فاستقامت نفوسُهم، وآثرت ما يبقى على ما

---

(١) يونس : ٧٦، ٧٧ .

(٢) طه : من الآية ٧١ .

(٣) طه : ٧٢- ٧٣.

يفنى، فخافوا مقام ربِّهم، و لم يخافوا غيره، ودعوا الله أن يُفرِغَ عليهم صبراً، ويتوفاهم مسلمين:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١)

ومن هُنا يُعرف أن الحقَّ الذي جاء به الأنبياء تُعَزُّ به النفوس، فلا تعبد إلا الله، ولا تستعينُ بأحدٍ سواه.

ومنهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله هو خيرُ ما تصلح به النفوس، فتُحسن في دنيا الناس ولا تُسيء، وتُصلح في الأرض ولا تُفسد، وتقصد بما تعملُ من الصالحات ابتغاءَ مرضات الله، فلا تُحبطُ ما عملت بشركٍ ظاهرٍ أو خفي، أو تُبطلُ ما صنعت بمنٍّ أو أذى؛ لأنها تؤمن باليوم الآخر، وترجو الفوزَ فيه.

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

وإذا تعلقت نفوسُ الناس بالدنيا كانت عندهم مرغوبةً مخطوبةً، فَلْيَعْلَمُوا أنَّ الخير لَيْسَ في إيثارها، ولن يكون السلام لمن يُريدها في ذاتها، وإنما الخير والبرُّ، والسلام والعدل في ابتغاء مرضات الله، والاستقامة على أمره، عندئذٍ يتحقَّقُ لدُنيا الناس ما ترجوه من: سلامٍ، وأمْنٍ، وتعاونٍ، وبرٍّ.. ولن يكون ذلك إلاَّ ممَّن يحذرُ الآخرة ويرجو رحمةَ ربِّه.

---

(١) الأعراف : ١٢٥، ١٢٦.

(٢) الحديد : ١٢.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (١)

* * *

ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملون :

إن الأنبياءَ وهم دُعاةٌ إلى الله يُذكّرون الناسَ بما هُم صائرون إليه، ومُنتهون عنده.

يُذكّرونهم بما هو واقعٌ في حياتهم، ومُتكررٌ أمام أنظارهم.

إن الله يستخلفُ الجيلَ بعد الجيل لينظرَ كيف يعملون، فلا يبقى منهم قادمٌ، ولا يرجع ذاهبٌ.

وهذه الحقيقة قد يغفل عنها كثيرٌ من الناس فيُقادون إلى أملٍ كذوبٍ وسرابٍ خادع. وتمضي فترةُ العمر بلا رجاءٍ في استقامة أو عملٍ صالح. وعند مجيء الأجل يَطْلبُ مَنْ فَرَّطَ أن يعودَ ليعمل صالحاً، فلا يُجابُ إلى ما طلب، ويَرَى عند الله ما كسَبَ أو اكتسب.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ ﴾ (٢)

---

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

(٢) المؤمنون : ٩٩- ١٠٣.

من هنا نستطيع أن ندرك لماذا يقعُ الصراع في دُنيا الناس، ولماذا يتعدَّدُ الابتلاء والاختيار.. وعمل الإنسان هو الذي يُحدِّدُ مكانته، وإجابته عمَّا يُمتحن به هي التي تكون خيراً له أو شراً عليه. والصراعُ بين الحق والباطل هو الذي تتميَّز به مواقفُ الناس، ويُعرَفُ الخبيثُ من الطيِّب.

ولنقرأ ما جاء في القرآن ونحن نتدبَّرُ منهجَ موسى عليه السلام في الدَّعْوَة إلى الله تعالى.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

والمستخلَفُ في الأرض مُمْتَحَنٌ بما استُخْلِفَ فيه ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

ولكنَّ الناس يَنْسَوْنَ أنهم مُستَخْلَفون، وأنهم يُمرُّون بالحياة ولا يُقيمون، وأنَّ ما بأيديهم لم يصل إليهم إلا بموتِ مَن كان قبلَهم، وسنخرُجُ منها بمثل ما جاء إليهم.. يَنْسَوْنَ ذلك فيميلون ويُسيئون حيث يجب أن يستقيموا وأن يُحسنوا.

وكَم كان حديث الأنبياء بليغاً وهم يُذكِّرون أقوامهم بهذه الحقيقة، ويُبصِّرونهم بما يجبُ أن يكونوا عليه.

نسمع هوداً عليه السلام يقول لقومه ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ

(١) الأعراف : ١٢٧- ١٢٩.

﴿ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

ذكَّرهم بمَن سبقهم، وفي التذكير عِبَرٌ وعِظات، وذكَّرهم بأن استخلافَهم مُحدَّد بأجل، إذا جاء ذهبوا، ويستخلِفُ اللهُ قوماً غيرهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢)

ونسمع صالحاً عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٣)

وهؤلاء وأولئك قد استخلفهم الله لينظرَ كيف يعملون، فمَن أحسن فجزاءه الحسنى، ومَن أساء فجزاء سيئةٍ بمثلها.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (٤)

والأنبياء وهم يُذكِّرون الناس بسُنن الله، ويُبلِّغونهم ما أُرسلوا به إليهم، يهدونهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فلا تصرفهم الرغائبُ عن العواقب، ولا تُلهيهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكر ربِّهم.

---

(١) الأعراف : من الآية ٦٩.

(٢) هود : ٥٧.

(٣) الأعراف : ٧٤.

(٤) آل عمران : ١٣٧، ١٣٨.

وها هو موسى عليه السلام يُجيبُ قومَه، وقد قالوا له شاكين متوجعين: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ليس استخلافاً دائماً، ولن يكون، وإنما هو استخلافٌ في الأرض لينظرَ كيف تعملون، ثم يمضي مَن استُخلِفَ بعمله، ويأت الله بقومٍ آخرين.. وهكذا دواليكَ أن يرث الله الأرض ومَن عليها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

وهذا القول من موسى عليه السلام لا يخصُّ قومَه وحدَهم، بل ينطبقُ عليهم وعلى غيرهم، فما من أحدٍ من الناس إلا وهو مستخلَفٌ، يعيش عُمُراً محدوداً، يُبتلى فيه ثم يرحل، وما من أحدٍ يُجاوز ما حُدِّدَ له من أجل، وكُلٌّ يجازَى بما عَمِل.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (٣)

ولا شكَّ أن ورود هذه الكلمة على ألسنة الرُّسل ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ لها دَلالتها في الدَّعْوَةِ إلى الله وإرشاد الناس

(١) الأعراف : ١٢٩.
(٢) مريم : ٤٠.
(٣) الأنعام : ١٣٢- ١٣٤.

إلى ما يجب أن يكون؛ فإن استخلافَ الأُمم وبقاءَها خاضعٌ لسُنن لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، ومداولة الأيام بين الناس لا يجهلها مَن تفكَّر وأحسنَ التدبُّر.

والرسل - وهم يُبلِّغون الناس، ويرشدونهم إلى الحق الذي لا مِريَةَ فيه - يُذكِّرونهم بما وقع في القرون الماضية؛ لتكون العِبرة شاخصةً أمام أنظارهم ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

بلاغٌ للناس أيُّ بلاغٍ وهم يرون حقيقتهم في أنفسهم وفي القرون.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾[3]

آجالٌ ينتهي النَّاسُ إليها، وزمنٌ يُستخلَف الناسُ فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا

(١) يونس : ١٣، ١٤.

(٢) غافر : ٨٢ .

(٣) فاطر : من الآية ٤٤، والآية ٤٥ بتمامها .

﴿ جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [1]

وما جاءوا في دُنياهم لكي يُقيموا فيها، وإنما جاءوا إليها لِيُمْتَحَنُوا بما أُمروا، ويعتبروا بما أُعْطُوا ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [2] ولا عُذرَ لأحدٍ بعد بيان، ولا عَوْدَ بعد انقضاء أجلٍ، ولا رجاءَ في تصحيح ما فات من عمل، وما أعطاهم الله من عُمُر، وما استخلفهم بعد أقوام ذهبوا، إلاَّ لينظر كيف يعملون ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [3]

والأنبياءُ - وهم يُخاطبون الناس بذلك - يُقدِّمون لهم العلم والمعرفة. العلم بحقيقة أنفسهم وما هم صائرون إليه، والعلم بقُدرة خالقهم وهو يُذْهِبُ قوماً، ويستخلفُ من بعدهم آخرين. والعلم بسُنن الله في خَلْقه، وما يقع في القرون من دمار وهلاك، وما يكون للعاملين من فوزٍ ونجاة.

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [4]

---

(١) يونس : من الآية ٤٩.

(٢) الملك : ١، ٢.

(٣) يونس : ١٤.

(٤) محمد : ١٠- ١٢.

ذاك هو منهج الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله، دعوةٌ إلى العمل، وبيانٌ لنتائج الأعمال صالحها وسيئها؛ ليهلك مَن هلك عن بيِّنة، ويحيى مَن حي عن بيِّنة، ولا شيء يخفى على الله من عمل الناس ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

فليس أمام الناس إلاّ أن يَصدُقوا مع الله، وأن يُخلصوا الدين له؛ فلا ملجأ من الله إلا إليه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: أرأيتَ أن الأنبياء دُعَاةُ حقٍّ، وحكمةٍ، ورُشدٍ، وأنهم حين يُذكِّرون الناس بما هو صائرون إليه ومنتهون عنده، إنما ينشُدون لهم الخيرَ في دُنياهم وأُخراهم.

إن سبيلهم هي السبيل، وإن صراطَهم هو الصراط المستقيم، فمَن اهتدى بهُداهم فقد هُديَ إلى صراط مستقيم، ومَن أعرض ونأى بجانبه، ضَلّ وهلك مع الهالكين.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) يونس : من الآية٦١.

(٢) ق : ٤٣- ٤٥.

(٣) الأنعام : ٩٠.

موقف بني إسرائيل من نِعَم الله تعالى :

رأينا من قبل ما كان من أمر موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وما انتهى إليه السحرةُ من إيمانٍ بربِّ موسى وهارون، كما رأينا ما كان من قوم موسى وقد نالهُم من كيد عدوِّهم ما نالهم، وقد قال لهم موسى ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

وقد تحقَّق لهم ما رجاه موسى، فأهلك الله عدوَّهم، ونجاهم من آل فرعون، وأورثهم مشارقَ الأرض ومغاربها.

فماذاَ عَملوُا وَقد استخلفهم الله في الأرض ومكّن لهم ؟ هل اعتبروا بما جرى لعدوِّهم أمام أنظارهم، فشكروا نعمة ربِّهم وأخلصوا دينَهم له ؟

فلنتدبر حديثَ القرآن عمَّا تَمَّ لهم، وما وقع منهم.

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ

(١) الأعراف : ١٢٨، ١٢٩.

هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾ [1]

لقد أخبر الله ﷻ أنه أورث القومَ الذين كانوا يُستَضعَفون - وهم بنو إسرائيل - أورثهم مشارق الأرض ومغاربها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [2]

لقد أورث الله بني إسرائيل نِعَماً كانت في أيدي غيرهم، بل كانت في حوزة عدوِّهم، وتمت كلمته على بني إسرائيل بما صبروا، وهي قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾

لقد كان عجيباً من القوم - وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا - أن يقولوا لنبيهم وقد أتوا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم: ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾ [3] وقد نجَّاهم الله من العذاب المهين، وأراهم هلاك عدوِّهم في موقف رهيب، قالوا فيه لموسى عليه السلام وهم يرون البحر أمام أعينهم، وفرعونَ يتبعهم: ﴿ إِنَّا

(١)الأعراف : ١٣٧- ١٤١.
(٢)القصص : ٥، ٦.
(٣) الأعراف : من الآية ١٣٨.

﴿ لَمُدْرَكُونَ ﴾ [1] إذ لا سبيل لخوض البحر أو ركوبه، ولا طاقة لهم في ردِّ عدوٍّ باغٍ قد لحِقَ بهم يريدُ أن يستأصلهم ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [2]

أبعد ذلك يقول مَن قال من بني إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ ؟!

إن ذلك لعجيب من ناس جعل الله لهم طريقاً في البحر، بينما أغرق عَدوَّهم وهم ينظرون ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [3]

أَمَنْ فعل هذا يُعبَدُ غيرُه، أو يُقصدُ سواه ؟ ولهذا ردَّ عليهم نبي الله موسى بقوله: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [4]

---

(١) الشعراء : من الآية ٦١.

(٢) الشعراء : ٦٠- ٦٨.

(٣) البقرة : ٥٠.

(٤) الأعراف : ١٤٠، ١٤١.

ذاك هو منهجُ الأنبياء في الدَّعْوَة إلى الله.. تذكيرٌ بنعم الله، وتحذيرٌ من الكُفران والجُحود.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]

* * *

(١) غافر: ٦١- ٦٤.